كتاب الرياضة وأدب النفس

للإمام أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

عنى بإخراجه

د. أ.ج. آربري

أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن

د. علي عبدالقادر

سكرتير المعهد الإسلامي الثقافي بلندن

الكتاب: كتاب الرياضة وأدب النفس

الكاتب: الإمام أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

إخراج : د. أ.ج. آربري ، د. علي عبدالقادر

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

الترمذي ، أبي عبدالله محمد

كتاب الرياضة وأدب النفس/ الإمام أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي، إخراج : د. أ.ج. آربري ، د. علي عبدالقادر

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٦١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٣ – ١٤ – ٦٨٢٣ ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع : ٩٤١٦ / ٢٠٢٠

كتاب الرياضة وأدب النفس

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

كان الحكيم الترمذي، الذي ننشر له هاتين الرسالتين لأول مرة، أحد أعلام الصوفية القدامى، وشيخاً من شيوخهم البارزين، كان صاحب مدرسة صوفية عرفي "بالحكيمية" نسبة إليه، وبقيت كتبه ورسائله أصولاً معروفة في الأدب الصوفي، وأمهات في التربية الدينية في هذه، الأوساط[١]، وكثير منها لا يزال مخطوطاً كما سنبينه، وبالرغم من هذا كله، لا يزال المعروف عن حياته قدراً يسيراً، يحوطه كثير من الشك والإبهام، حتى إننا لا نعرف على وجه التحقيق وقت وفاته.

اسمه وموطنه:

واسمه، كما جاء عند المؤرخين وأصحاب كتب الطبقات، أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي[٢]. ولد في أوائل القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) بمدينة ترمذ، وهي

---

[١] يقول أبو الفرج بن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ بصدد كلامه على الكتب المعتمدة عند الصوفية: "وقد صنف لهم أبو عبدالله محمد بن علي الترمذي كتاباً سماه "رياضة النفوس"، قال فيه....." تلبيس إبليس: ص٢١٠.

[٢] الذهبي في تذكرة الحفاظ: (ج٢ ص١٩٧)، والسبكي في طبقات الشافعية الكبرى: (ج٢ ص..)، وأبو نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء: (ج١٠ ص٢٣٣).

مدينة على ضفة نهر جيحون، بإقليم ما وراء النهر، وقد ذكر مؤلف جغرافي لبلاد الفرس، مجهول الإسم، في كتابه "حدود العالم"، يصف ترمذ بأنها "مدينة زاهرة، وسوف ختلان وشغانيان، وأنها تنتج الصابون الجيد، والحصر المجدولة الخضراء، والمراوح"[١]. وزعم المؤرخ الفارسي حافظ آبرو أن الإسكندر الأكبر قد أسس مدينة ترمذ، وأنها كانت عند الفتح الإسلامي- كما جاء في المصادر الصينية- مركزاً للبوذية، وكان بها اثنا عشر ديراً، لزهاء ألف راهب، وكان يحكمها ملك يدعى ترمذشاه، ويحميها حصن قوي على ضفة النهر. وقد فتحها في سنة ٧٠هـ= ٦٨٩م موسى ابن عبدالله بن خازم، واستمر على حكمها خمسة عشر عاماً، ثم خلفه بعد ذلك عثمان بن مسعود، بأمر من المفضل بن المهلب حاكم الولاية[٢].

وقد وصف ياقوت بن عبدالله الرومي المتوفي سنة ٦٢٦هـ= ١٢٢٩م ترمذ بأنها "مدينة مشهورة، من أمهات المدن، راكبة على نهر جيحون، من جانبه الشرقي، متعلقة العمل بالصغانيان، ولها قهندز وربط، يحيط بها سور، وأسواقها مفروشة بالآجر، ولهم شرب يجري من الصغانيان، لأن جيحون يستقل عن شرب قراهم.

وقال نهار بن توسعة يذم قتيبة بن مسلم الباهلي، ويرثي يزيد بن المهلب:

هبـــت شـــمالاً خريقـــاً أســـقطت ورقـــاً   واصــفر بالقــاع بعــد الخضــرة الشــيح

---

[١] حدود العالم (ed. Minorsky) ص: ١١٤.

[٢]W: Barthold in Encyclopaedia of Islam, Vol. P. ٧٩٣

فارحـــل هــــديت ولا تجعـــل غنيمتنـــا ثلجـــاً تصـــفقه بالترمـــذ الــــريح
إن الشـــــتاء عـــــدو لا نقابلـــــه فارحل هديت وثوب الدفء مطروح[١]

وكانت ترمذ موطناً لعدد كبير من المحدثين والفقهاء، منهم المحدث المعروف: أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، صاحب الجامع والعلل، وكتاب الشمائل؛ وقد تلقى الحديث على الإمام أحمد بن محمد ابن حنبل، والبخاري، وأبي داود السجستاني، ومات في بوغ قريباً من ترمذ سنة ٢٧٠هـ= ٨٨٣م أو ٢٧٥هـ= ٨٨٨م أو ٢٧٩هـ= ٨٩٢[٢]م. وقد كان أبو عيسى معاصراً لأبي عبدالله، وكانا من بلد واحد وهو ترمذ، ودرساً وكتبا الحديث، إلا أنه لم يصل إلينا ما يؤيد تلاقيهما أو تدارسهما الحديث، ولا يعد هذا غريباً، فإن أبا عيسى كان من أهل الحديث والسنة، وكان أبو عبدالله من الصوفية، وقد أظهر آراء أدت إلى إخراجه من بلده، ومثل هذا من شأنه أن يبعد بين الرجلين.

المشرق والتصوف الإسلامي:

وقد لعبت هذه البلاد التي تقع في الشمال الشرقي للدولة الإسلامية، (خراسان وتركستان) دوراً هاماً في الثقافة الإسلامية، وكانت كما رجح بعض الكاتبين[٣]، المهد الأول للتصوف؛ وفي الواقع أن كثيراً من التأثيرات الأجنبية في التصوف الإسلامي، قد ترجع إلى هذه الأديان

[١] معجم البلدان طبعة ليبزج: (ج١ ص٨٤٤).

[٢]A.J. Wensinck in Encyclopaedia of Islam Vol. ٤P. ٧٩٦, Brockelmann, "Geschichte der arabischen Litteratur , ١, ١٦٤, ١٩٩, Suppl. ١, ٣٥٥-٧

[٣]R; Hartmann, Der Islam Vol. ٦ P. ٣١

والثقافات، التي كانت تسود في هذه النواحي الشرقية، وإذا ما رجعنا إلى الدلائل التاريخية، وأحصينا أعلام الصوفية القدامى، نجد أن أكثرهم ينتسب إلى هذه الأصقاع. ففي أثناء القرن الثاني الهجري، نجد- تبعاً لما ذكره القشيري- أن شيوخ الصوفية الذين توفوا في هذا القرن أربعة: أحدهم، وهو داود بن نصير الطائي، عربي الأصل، والثلاثة الباقون خراسانيون، وهم: إبراهيم بن أدهم الذي يعتبر أبا التصوف الإسلامي، من بلخ، والفضيل بن عياض ولد في مرو أو سمرقند، ثم شفيق البلخي من بلخ، وإذا ما تقدمنا إلى النصف الأول من القرن الثالث، نجد بجانب الشيوخ العراقيين وهم معروف الكرخي، والحارث المحاسبي؛ والشاميين، وهم أبو سليمان الداراني، وأحمد بن أبي الحواري؛ ثم ذو النون المصري من مصر- نجد في خراسان منصور بن عمار، وبشرا الحافي، وحاتما الأصم، من مدرسة شقيق البلخي، وتلميذه أحمد بن خضرويه، وأبا تراب النخشبي، وفي النصف الثاني من هذا القرن نجد بجانب العراقيين: السري السقطي والجنيد- يحيى بن معاذ الرازي، وأبا يزيد البسطامي، والحكيم الترمذي.

ومن هذا الإحصاء الموجز عن شيوخ الصوفية الأولين، يظهر لنا بوضوح أن أغلبهم كان من المشرق، وهو الأمر الذي لا يمكن أن يمر المؤرخ عليه مر الكرام، إذا ما أراد تأريخ نشأة التصوف.

وقد كان المشرق قبل الفتح الإسلامي ملتقى هاماً لثقافات وأديان مختلفة؛ حيث كان الطريق الرئيس الذي يربط بلاد الصين وبلاد فارس مخترقاً بلاد الهند؛ وهنا تلاقت الأديان والثقافات المختلفة، فنجد المجوسية بجانب البوذية، بجانب أديان الهند وثقافاتها؛ ومن هذه

الجهات شقت النسطورية طريقها إلى الصين، ومنها انتشرت المانوية في الشرق: كما كانت مجالاً للغزو اليوناني، فبلخ هي بكترا اليونانية **Bactria**، فكل هذه العناصر المختلفة كان لها من غير شك أثر في تطور التصوف الإسلامي في أول الأمر، وكل هذا قد يساعد على تعرف عناصر التصوف ونشأته، الأمر الذي يعني به العلماء في العصر الحاضر.

حياة الترمذي:

ولا يعطينا المؤرخون الموثوق بهم، أو الكاتبون القدامى عن التصوف، إلا مادة قليلة، ومعلومات مقتضبة، عن حياة أبي عبدالله الترمذي؛ فلا نجد فيها شيئاً سوى أسماء شيوخه، وسوى خبر نفيه من ترمذ؛ وتركوا ذلك إلى القصص والأخبار، التي نجدها عند المتأخرين من كتاب الفرس الذين كتبوا عن الصوفية؛ وهي مع استحقاقها للنظر، لا يمكن أن تقبل بدون مناقشة وتمحيص.

فمن هؤلاء فريد الدين العطار الشاعر الفارسي المعروف، الذي قيل إنه مات وعمره مائة وخمس عشرة سنة في سنة ٦٢٧هـ= ١٢٣٠م؛ فقد روى في كتابه "تذكرة الأولياء" أن أبا عبدالله فقد والده وهو صغير[١]؛

وهو خبر سنبين خطأه فيما بعد، وقص لنا هذه القصة: "ذلك أنه كان عقد النية في أول أمره على الرحلة لطلب العلم في رفقة اثنين من إخوانه؛ وفي أثناء ذلك مرضت أمه، وقالت له: يابني إني امرأة ضعيفة، لا عائل لي، ولا معين يعينني، وإنك المتولي لأمري، فإلى من تكلني

---

[١] تذكرة الأولياء (طبعة نيكلسون): ج٢ ص ٩١-٩٢

وتذهب؟ فنالت هذه الكلمات من نفسه، وعدل عن الرحلة، ومضى زميلاه في سبيلهما. ثم مضى على ذلك بعض الوقت. فبينما كان في إحدى المقابر يبكي بكاء شديداً ويقول: ها أناذا قد بقيت جاهلاً مهملاً، وسيرجع أصحابي وقد حصلوا على العلم، إذا به يرى أمامه فجأة شيخاً مشرق الوجه، فسأله الشيخ عن سر بكائه، فأفضى إليه بحاله، فقال له الشيخ: ألا أعلمك في كل يوم شيئاً من العلم، فلا يمر عليك كثير وقت حتى تسبق إخوانك؟ فأجابه إلى ذلك، واستمر الشيخ على تعليمه كل يوم؛ ومضت على ذلك أعوام. ثم عرف بعد ذلك أن الشيخ هو الخضر عليه السلام، وأنه إنما حصل على هذا ببركة دعاء أمه. "وأضاف العطار إلى ذلك، راوياً عن أبي بكر الوراق[1]، أن الخضر كان يأتيه ليعلمه كل يوم أحد، حيث كانا يتذاكران العلم، ويتجاذبان الحديث".

فهذه القصص وأمثالها إنما هي أقرب إلى صنع الخيال منها إلى الحقيقة؛ ومع ذلك فقد تحتوي على مواد في ثناياها، لها قيمة في تكوين صورة عن حياته، ما دامت تعوزنا المعلومات الموثوق بها.

وقد جاء عند السبكي، أنه درس الحديث على جماعة من محدثي خراسان والعراق، فذكر أباه (وهو ما يضعف رواية العطار بأن أبا عبدالله عاش يتيماً) وقتيبة بن سعيد، وصالح بن عبدالله الترمذي، وصالح بن محمد الترمذي، وعلي بن حجر السعدي، ويعقوب الدورقي، وسفيان ابن وكيع[2].

---

[1] هو أبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق الترمذي البلخي. انظر القشيري في الرسالة: ص٣٦؛ وأبا نعيم الأصفهاني في حلية الأولياء: ج١٠ ص١٣٧.

[2] طبقات الشافعية الكبرى: ج٢ ص٢٠.

وذكر الذهبي ما يماثل ذلك عن شيوخه، وزاد الحسن ابن عمر بن شقيق، ويحيى بن موسى، وعتبة بن عبدالله المروزي، وعباد بن يعقوب الرواجيني[1].

وإذا تتبعنا شيوخه الذين جاء ذكرهم في هاتين الرسالتين: رياضة النفس، وأدب النفس، وروى عنهم أحاديثه، نجدهم هكذا: أبوه روى عنه أكثر من مرة، حيث يقول: وحدثنا بذلك أبي رحمه الله، وفي هذا ما يبطل ما ذكره العطار، من أن والده مات وهو صغير؛ وعبدالجبار ابن العلاء، وسفيان بن وكيع، وقتيبه بن سعيد، والفضل بن محمد، وعلي ابن حجر، والجارود بن معاذ، وإسماعيل بن نصر، وإبراهيم بن المستمر البصري، وعمر بن أبي عمر، وأبو بكر بن سابق الأموي، وعبدالكريم ابن عبدالله، وعبدالله بن أبي زياد، ومحمد بن سهل، وصالح بن محمد.

ومن تلامذته الذين رووا عنه الحديث: يحيى بن منصور القاضي، والحسن بن علي، وغيرهم من محدثي نيسابور؛ وممن صاحبوه في التصوف والطريقة- كما جاء عند أبي نعيم والقشيري- أبو تراب عسكر بن حاصن النخشبي (توفي سنة ٢٤٥هـ= سنة ٨٥٩)[2] وأبو حامد أحمد ابن خضرويه البلخي (توفي سنة ٢٤٠هـ= سنة ٨٥٤م وعمره ٩٥ عاماً)[3] وأبو عبدالله أحمد بن يحيى بن الجلاء.

وقد سماه الذهبي "المحدث"، ومن هذه التسمية ومن تتبع أحاديثه وشيوخه الذين حدث عنهم، وأكثرهم موثوق به، نستطيع أن نتبين أن أبا

---

[1] تذكرة الحفاظ: ج٢ ص١٩٧.

[2] الرسالة القشيرية: س٢٠؛ وحلية الأولياء: ج١٠ ص٢٢٠.

[3] الرسالة القشيرية: ص١٩.

عبدالله اشتغل بالحديث والرواية، واهتم بذلك كعادة أهل زمنه، ولكنه لم يمعن في هذه الناحية من العلم؛ ومع ذلك فقد بقيت آثار واضحة من ذلك فيما كان يكتب في التصوف، حيث كان يدعم بما عرفه من الأحاديث الحكمية الصوفية، آراءه في التربية والطريقة، وإن كانت هذه الأحاديث لا تقوم عند ناقدي الحديث.

وقد ذكر لنا فريد الدين العطار، أن أبا عبدالله تزوج وأنجب أولاداً، ويقص علينا هذه القصة: وهي أن أولاده سئلوا كيف كان حال أبيهم عندما يغضب، فقالوا: إننا نعرفه عندما كان يغضب، فإنه يكون أكثر حناناً وأشد عطفاً، كان يكف عن الطعام والشراب، وينتحب ويقول: "يا مولاي، كيف أغضبتك حتى جعلتهم يغضبونني، تبت إليك يا مولاي، فأصلح حالهم.

وقد ذكر بعض المؤرخين لوفاة أبي عبدالله أنها كانت في سنة ٢٥٥هـ- ٨٦٨م[1]، ولكن هذا لا يتفق مع ما جاء عند السبكي والذهبي، من أنه طرد من ترمذ، ورحل إلى نيسابور، وأخذ يدرس الحديث هناك في سنة ٢٨٥هـ= ٨٩٨م، وأنه ذهب إلى بلخ، واستقبل هناك بحفاوة، لموافقته إياهم في المذهب: "وأضاف الذهبي إلى ذلك أنه عاش نحوا من ثمانين عاماً".

وعلى أساس هذه المعلومات يمكن أن نستنتج أن أبا عبدالله مات عند نهاية القرن الثالث الهجري، وأقرب ما يكون أن ذلك كان في حدود

(١) انظر H. Ethe, Catalogue Of the Persian Manuscripts in the India Office Library ١, Column ٢٩٣, quoting Dara Shikuh, Safinat al awliya fol ٨٥

سنة ٢٩٦هـ= ٩٠٣م. أما ما ذكره بعض المؤرخين المعاصرين، من أنه مات في سنة ٣٢٠هـ= ٩٣٢م، فلا يقوم على أساس صحيح[١]. وقبره معروف الآن في خرائب ترمذ القديمة، يقول بارتولد: "ونجد بين الأبنية في خرائب المدينة القديمة، ضريح الولي أبي عبدالله محمد بن علي الترمذي.

وهذا الضريح من المرمر الأبيض. وقد ذكر بوسلافسكي أن هذا الأثر لا يفوقه "من حيث الصنعة والمادة" أي أثر آخر من الآثار القديمة، التي عرفت حتى الآن في هذه النواحي، ولم يقم هذا الضريح معاصرو الترمذي ولا يمكن أيضاً أن يكون بناؤه قد حدث قبل القرن الرابع عشر الميلادي، بدليل الخط العربي النسخي الذي كتب على هذا القبر، وهو خط هذا العصر. وقد جاء ذكر هذا القبر في تاريخ تيمور[٢]"

أسلوبه

جاء عند القشيري أن أبا عبدالله قال: "ما صنعت حرفاً عن تدبير، ولا لينسب إلى شيء منه، ولكن كان إذا اشتد على وقتي أتسلى به"[٣]. وهذا القول يتفق إلى حد كبير مع ما كتبه الحكيم الترمذي، فهي كتابة لا تقوم على أسلوب منتظم (System)، بل هي أقرب ما تكون إلى إفاضة القول في موضوع، والاستطراد فيه، مع الاستدلال عليه بحجج من القرآن والحديث، وتأويل ذلك تأويلاً يتفق مع رأيه. ومثل هذا النوع من التأليف كثيراً ما يسوده التكرار والاستطراد، وهذه الخصيصة في

---

(١) Brockelmann, G.A.L.. ١ P. ١٩٩

(٢) Barthold, Turkestan down to the Mongol Invasion (tr. H. A. R. Gibb) p٧٥-٧٦.

(٣) القشيري: ص٢٦.

الاستطراد والتوسع في الشرح، هي التي جعلت أسلوبه حراً طليقاً، لا تعقيد فيه ولا غموض، فإنه لم يجز لنفسه هذا التعقيد المقصود، الذي كان يلجأ إليه مثل أبي القاسم الجنيد وأمثاله من الصوفية الأولين، إذا ما استثنيا الحارث المحاسبي. وقد يكون السبب في هذا، أنه لم يتناول المسائل الميتافيزيقية أو الدينية العميقة، ولكنه قصر نفسه على المسائل التعليمية والخلقية، وأياً كان الأمر، فإنه لم يصلنا من هذا النوع ما نستطيع أن نبني عليه حكماً، وكل ما بأيدينا هو ما كتبه في هذه الأمور العامة، التي لا يدور حولها الجدال والمناقشة.

وأكثر اهتمام الحكيم الترمذي، هو تبيين العلاقة بين الحقائق النفسية وبين الجسم الإنساني، وربط بعض ذلك ببعض، وهو على ما يظهر كان على معرفة بتركيب الجسم، مما يدل على أنه درس شيئاً من الطب، ولعل ذلك السبب الذي من أجله سمي "الحكيم".

مؤلفاته:

وقد حفظت المكتبات كثيراً مما كتبه أبو عبدالله، وإن لم يطبع من هذا إلا النزر اليسير. وهناك ما ورد ذكره من كتب ورسائل لا نعرف إلا أسماءها، وهذه جملة كتبه ورسائله، ما وجد منها بالفعل، أو بالاسم. ويلاحظ أن أغلب هذه الكتب قصير، وبعضها لا يتجاوز صفحات:

(أ) الكتب الموجودة

(١) نوادر الأصول، في معرفة أخبار الرسول: مجموعة من الأحاديث، طبعت في إستانبول سنة ١٩٢٣.

(٢) رياضة النفس، أو كتاب الرياضة، أو حقيقة الآدمية، ثلاث نسخ في دمشق، وإستانبول، ومجموعة شستربيتي.

(٣) أدب النفس؛ نسختان: في إستانبول، وشستربيتي.

(٤) مسائل التعبير، نسخة في ليبزج، وقد نشرت في **Rivista Degli Studi Orientali ١٨ P. ٣٢٠-٣**

(٥) كتاب الأكياس والمغترين، نسخة في المكتبة الظاهرية بدمشق.

(٦) جواب كتاب من الري؛ نسختان: بدمشق وليدن.

(٧) بيان الكسب، نسخة بدمشق.

(٨) مسائل؛ نسخة بدمشق.

(٩) كتاب الفروق ومنع الترادف؛ نسختان في إستانبول.

(١٠) شرح الصلاة ومقاصدها؛ نسختان: في إستانبول، وباريس.

(١١) الحج وأسراره؛ نسخة في باريس.

(١٢) الاختيارات؛ نسخة في باريس.

(١٣) الجمل اللازم معرفتها؛ نسختان: في باريس، ومانشستر.

(١٤) عرش الموحدين؛ نسختان: في باريس، وإستانبول.

(١٥) الأعضاء والنفس، وفيه تفسير آيات عظيمة؛ نسختان: في باريس، وإستانبول.

(١٦) منازل العباد في العبادة؛ نسختان: في باريس، وإستانبول.

(١٧) العقل والهوى؛ نسختان في باريس، وإستانبول.

(١٨) المنهيات، وكل ما وجد من حديث باتهي، نسختان: في باريس، وإستانبول.

(١٩) الأمثال من الكتاب والسنة؛ نسختان: في باريس، وإستانبول.

(٢٠) غور الأمور؛ نسخة في إستانبول.

(٢١) مسألة في الإيمان والإسلام والإحسان؛ نسختان: في ليبزج، ومجموعة شستربيتي.

(٢٢) منتخبات من كتاب الصفاء؛ نسخة في مجموعة شستربيتي.

(٢٣) رسالتان بلا عنوان، نسخة في مجموعة شستربيتي.

(٢٤) المسائل المكنونة؛ نسخة في ليبزج.

(٢٥) كتاب إلى محمد بن الفضل؛ نسخة في ليبزج.

(٢٦) كتاب إلى بعض إخوانه؛ نسخة في ليبزج.

(٢٧) رسالة بلا عنوان.

(٢٨) مسألة لأهل مراتب القيامة؛ نسخة في ليبزج.

(٢٩) رسالة إلى محمد بن الفضل؛ نسخة في ليبزج.

(٣٠) المسائل التي سأله أهل سرخس عنها؛ نسخة في ليبزج.

(٣١) كتاب إلى ابن عثمان سعيد النيسابوري؛ نسخة في ليبزج.

(٣٢) المسائل الغضة، نسخة في ليبزج.

(٣٣) رسائل؛ نسخة في إستانبول، ويمكن أن تحتوي على بعض الرسائل المتقدمة.

(٣٤) علل العبودية، أو علل الشريعة؛ نسختان: في برلين، والقاهرة.

(ب) الكتب المفقودة

(٣٥) ختم الولاية، أو خاتم الأولياء. أو خاتم الأنبياء، وأبوابه محفوظة في كتاب: "الجواب المستقيم، عما سئل عنه الترمذي الحكيم". لمحيي الدين بن عربي. (راجع ما بعد).

(٣٦) آداب المريدين، ذكره الهجويري في كشف المحجوب.

(٣٧) كتاب عذاب القبر، ذكره الهجويري في كشف المحجوب.

(٣٨) كتاب النهج، ذكره الهجويري في كشف المحجوب.

(٣٩) كتاب التوحيد ذكره الهجويري في كشف المحجوب.

(٤٠) تاريخ المشايخ، ذكره الهجويري في كشف المحجوب.

(٤١) كتاب العلوم، ذكره الترمذي في كتاب الأكياس والمغترين.

(٤٢) كتاب صفة القلوب، ذكره في كتاب أدب النفس وأحوالها وهيئة تركيبها.

مبادئه:

أشرنا قبل في هذه المقدمة إلى قصة طرد الترمذي من بلده؛ وقد ذكر لنا السبكي السبب في هذا، فقال:"قال أبو عبدالرحمن السلمي[1]: نفوه من ترمذ، وأخرجوه منها، وشهدوا عليه بالكفر، وذلك بسبب تصنيفه كتاب "ختم الولاية" وكتاب "علل الشريعة"، وقالوا إنه يقول إن للأولياء خاتماً، كما أن للأنبياء خاتماً، وإنه يفضل الولاية على النبوة، واحتج بقوله عليه السلام: يغبطهم النبيون والشهداء، وقال: لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم. ثم جاء إلى بلخ، فقبلوه بسبب موافقته إياهم على المذهب. ثم اعتذر السلمي عنه ببعد فهم الفاهمين.

قلت: ولعل الأمر كما زعم السلمي، وإلا فما نظن بمسلم أن يفضل بشراً على الأنبياء عليهم السلام"[2].

ولعل كتاب ختم الولاية أو ختم الأولياء، هو كتاب "ختم الأنبياء"، الذي ورد ذكره عند حاجي خليفة بأنه تأليف مختصر[3]؛ ولما كان هذا الكتيب غير موجود بأيدينا، فلا يمكن أن نبدي رأياً جازماً فيما تستحقه هذه المسألة الهامة، التي أدت بالترمذي إلى مثل هذه النتيجة؛ وكل ما هناك أن ابن عربي قد أتى بثبت عن رءوس الموضوعات التي تناولتها هذه الرسالة، نجد من الخير أن نأتي بها على وجهها:

---

(1) أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين بن محمد بن موسى السلمي، (توفي ٤١٢هـ ١٠٢١م) صاحب طبقات الصوفية" وغيره. انظر مجلة كلية الآداب مجلد ٦، ص٥٤-٦٦.

(2) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي، ج٢ ص٢٠.

(3) حاجي خليفة: كشف الظنون (طبعة إستانبول ١٩٤١) ج١ ص٧٠٠.

الجواب المستقيم، عما سئل عنه الترمذي الحكيم:

١- عدد منازل الأولياء ٢- أين منازل أهل القربة؟ ٣- ومجالسهم حيث هم من خلف ذلك الحجاب؟ وأين الذين حازوا، والعساكر بأي شيء حازوا؟ ٤- وإلى أين منتهاهم؟ ٥- أين مقام أهل المجالس والحديث؟ ٦- وكم عددهم؟ ٧- بأي شيء استوجبوا هذا على ربهم؟ ٨- وما حديثهم ونجواهم؟ ٩- بأي شيء يفتحون المناجاة، وبأي شيء يختمونها؟ ١٠- وأي اسم منحه من أسمائه؟ ١١- وبما ذا يسألون وبما ذا يجابون؟ ١٢- وكيف يكون صفة سيرهم؟ ١٣- ومن الذي يستحق خاتم الأولياء كما يستحق محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبوة؟ ١٤- بم وبأي صفة يكون ذلك المستحق لذلك؟ ١٥- ما سبب الخاتم وما معناه؟ ١٦-كم مجالس ملك الملك؟ ١٧- أين مقام الرسل من مقام الأنبياء؟ ١٨- أين مقام الأنبياء من الأولياء؟ ١٩- بأي شيء حظ كل رسول من ربه؟ ٢٠- ٢١- أي شيء حظوظ الأولياء من أسمائه؟ ٢٢- وأي شيء علم البدء؟ ٢٣- قول النبي عليه السلام: كان الله ولا شيء معه ٢٤- ما بدء الأسماء؟ ٢٥- ما بدء الوحي؟ ٢٦- ما بدء الروح؟ ٢٧- ما بدء السكينة؟ ٢٨- ما العدل؟ ٢٩- ما فضل بعض النبيين على بعض وكذلك الأولياء؟ ٣٠- خلق الله الخلق في الظلمة ٣١- ٣٢- وكيف صفة المقادير؟ ٣٣- وما سبب علم القدر الذي طوي عن الرسل فمن دونهم؟ ٣٤- ولأي شيء طوي؟ ٣٥- متى ينكشف لهم سر القدر؟ ٣٦- أين ينكشف لهم؟ ٣٧- لمن ينكشف؟ ٣٩- وما العقل الأكبر الذي قسمت العقول منه لجميع خلقه؟ ٤٠-

صفة آدم ٤١- وما توليته؟وما فطرته؟ ٤٣- وما الفطرة؟ ٤٤- لم سماه بشراً؟ ٤٥- وبأي شيء نال التقدمة على الملائكة حتى أمرهم بالسجود؟ ٤٦- وكم عدد الأخلاق الذي منحه عطاء؟ ٤٧- كم خزائن الأخلاق؟ ٤٨- إن لله مائة وسبعة عشر خلقاً، ما تلك الأخلاق؟ ٤٩- كم للرسل منها، أي من هذه الأخلاق؟ ٥٠- كم لمحمد صلى الله عليه وسلم منها؟ ٥١- وأين خزائن المنن؟ ٥٢- وأين خزائن سعي النفوس؟ ٥٣- ومن أين تعطى للأنبياء؟ ٥٤- وأين خزائن المحدثين من الأولياء؟ ٥٥- وما الحديث؟ ٥٦- وما الوحي؟ ٥٧- وما الفرق بين المحدثين والأنبياء؟ ٥٨- وأين مكانهم؟ ٥٩- وأين سائر الأولياء ٦٠- وما حوض الوقوف؟ ٦١- وكيف صار أمره كلمح البصر؟ ٦٢- أمر الساعة كلمح البصر أو هو أقرب؟ ٦٣- وما كلام الله لعامة أهل الوقوف؟ ٦٤- وما كلامه للموحدين؟ ٦٥- وما كلامه للرسل؟ (٦٦-٧١) ما حظوظ الأنبياء من النظر إليه؟ وما حظوظ المحدثين؟ وما حظوظ سائر الأولياء؟ وما حظوظ العامة، فإن للحظوظ منهم في هذه الزيارة من التفاوت ما لا يطيق له البشر وصفاً، وكما أن للجنة درجات فكذلك يوم الزيارة لهم درجات؟ ٧٢- في الأخبار موجود أن الرجل منهم ينصرف بحظه من ربه، فيذهل أهل الجنان عن نعيمهم اشتغالاً بالنظر إليه ٧٣- وما المقام المحمود؟ ٧٤- وبأي شيء ناله؟ ٧٥- كم بين حظ محمد صلى الله عليه وسلم وبين حظ غيره من الأنبياء عليهم السلام؟ ٧٦- وما لواء الحمد؟ ٧٧- وبأي شيء يثني على ربه حين يستوجب لواء محمد الخاص من جميع الوجوه؟ ٧٨- وماذا تقدم إلى ربه من العبودية، حتى يثني عليه رب العزة، ويشهد له بقدم الصدق؟ ٧٩- وبأي

شيء يختمه حتى يناوله مفاتيح الكرم؟ ٨٠- وما مفاتيح الكرم؟ ٨١- وعلى من توزع عطايا ربنا؟ ٨٢- وما النبوة؟ ٨٣- كم أجزاء النبوة؟ ٨٤- كم أجزاء الصديقية؟ ٨٥- وما الصديقية؟ ٨٦- على كم تثبت العبودية؟ ٨٧- وما يقتضي الحق من الموحدين؟ ٨٨- وما الحق؟ ٨٩- وماذا بدؤه؟ ٩٠- وأي شيء فعله في الخلق؟ ٩١- وبماذا وكل؟ ٩٢- وما ثمرته؟ ٩٣- وما المحق؟ ٩٤- وأين محل من يكون محقاً؟ ٩٥- وما سكينة الألياء؟ ٩٦- وما حظ المؤمنين؟ ٩٧- وما حظهم من كل شيء هالك إلا وجهه؟ ٩٨- كيف خص ذكر الوجه؟ ٩٩- وما مبتدأ الحمد؟ ١٠٠- وما قوله آمين؟ ١٠١- وما السجود؟ ١٠٢- وما بدؤه؟ (١٠٣-١٠٧) وما قوله: العزة إزاي، والعظمة ردائي، وما الإزار؟ وما الرداء؟ وما الكبر؟ ١٠٨- وما تاج الملك؟ ١٠٩- وما الوقار؟ ١١٠- وما صفة مجالس الهيبة؟ ١١١- وما صفة ملك الآلاء؟ ١١٢- وما صفة ملك الضياء؟ ١١٢- وما صفات ملك القدس؟ ١١٤- وما القدس؟ ١١٥- وما سبحات الوجه؟ ١١٦- وما شراب الحب؟ ١١٧- وما كأس الحب؟ ١١٨- ومن أين؟ ١١٩- وما شراب حبه لك حتى يسكرك عن حبك له؟ ١٢٠- وما القبضة؟ ١٢١- ومن الذين استوجبوا القبضة حتى صاروا فيهم؟ ١٢٢- وما صنعه بهم في القبضة؟ ١٢٣- وكم نظرته إلى الأولياء في كل يوم؟ وإلام كان ينظر منهم؟ ١٢٤- وإلام نظر من الأنبياء عليهم السلام وكم إقباله على خاصته كل يوم؟ ١٢٥- وإلى ماذا نظر من الأنبياء عليهم السلام؟ (١٢٦-١٢٧) وما المعية؟ فإنه مع الخلق ومع أصفيائه وأنبيائه وخاصته وكيف الفرق بين هؤلاء في ذلك التفاوت؟ ١٢٨- وما ذكره الذي يقول: ولذكر الله أكبر؟ ١٢٩-

اذكروني أذكركم؟ ١٣٠- وما معنى الاسم؟ ١٣١- وما رأس الأسماء الذي استوجب منه جميع الأسماء؟ ١٣٢- وما الاسم الذي أبهم على الخلق إلا على خاصته؟ (١٣٣-١٣٤) وبم نال صاحب سليمان ذلك وطوى عن سليمان وهو رسول من الرسل؟ وما السبب في ذلك؟ ١٣٥- ماذا اطلع الاسم: على حروفه أم على معناه؟ ١٣٦- وأين باب هذا الاسم الخفي عن الخلف بأبوابه؟ ١٣٨- وما كسوته؟ ١٣٨- وما حرفه من حروف المعجم؟ ١٣٩- والحروف المقطعة مفتاح كل اسم من أسمائه، فأين هذه الأسماء وإنما هي ٢٨ حرفاً، فأين هذه الحروف؟ ١٤٠- وكيف صار الألف مبتدأ الحروف؟ ١٤١- كيف كرر الألف واللام في آخرها؟ ١٤٢- ومن أي حساب صار عددها ٢٧ حرفاً؟ ١٤٣- وما معنى قوله خلق آدم على صورته؟ ١٤٤- ليتمنين اثنا عشر نبياً أنهم كانوا من أمتي؟ ١٤٥- وما تأويل قول موسى عليه السلام رب اجعلني من أمة محمد؟ ١٤٦- قوله إن الله عباداً ليسوا بأنبياء يغبطهم النبيون بمقامهم وقربهم إلى الله؟ ١٤٧- وما تأويل قول بسم الله؟ ١٤٨- السلام عليك أيها النبي؟ ١٤٩- السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين؟ ١٥٠- أهل بيتي أمان لأمتي؟ ١٥١- آل محمد؟ ١٥٢- أين خزائن الحجة من خزائن الكلام من خزائن علم التدبير؟ ١٥٣- وأين خزائن علم الله من علم البدء؟ ١٥٤- وما تأويل أم الكتاب، فإنه ادخرها في جميع الرسل لهذا الرسول ولهذه الأمة؟ ١٥٥- وما معنى المغفرة التي قد غفر لنبينا عليه السلام وقد بشر سائر المرسلين بالمغفرة[1]".

---

[1] فهرس كتاب خاتم الأولياء (مخطوطة إستانبول عمومية ٣٧٥٠) نقلاً عن ماسنيون:
Recueil de texts inedits p. ٣٣-٣٦, ٢٥٣-٢٥٤

وقبل أن نبدي رأينا واستنتاجنا من هذا الثبت، نرى أن نتعرف خاتم الولاية عند ابن عربي، الذي وضع من غير شك كتاب الترمذي أمامه عندما كتب ما كتبه، على ألا ننسى في الوقت نفسه أن ابن عربي فيما استعمله من رسالة الترمذي، قد وجد الأصول الأولى لمبادئه، ثم طور هذه المبادئ إلى مبادئه الخاصة، وذلك معروف في طريقة ابن عربي، حيث كان يلم بأشتات الموضوعات المختلفة، ويضم إلى طريقته ما يلائمه منها، ويزيد إلى ذلك ما يريد. وأياً كان الأمر فابن عربي يرى أن "الولي" هو كلمة اصطلاحية، تضم كل الرسل والأنبياء؛ فالرسول عنده ولي عهد إليه في تبليغ رسالة عن الله، والنبي ولي متميز عن غيره من الأولياء، بسبب خصوصية فيه، وهي المعرفة؛ فالولاية هي أساس كل المقامات الروحية، وعنصرها الأول؛ وأنها– كما أضاف ابن عربي– صفة ربانية (والله يسمى نفسه ولياً)؛ وإذا وصف بها الإنسان فإنما يعني بها أولئك الذين تحققوا الوحدة به؛ فهي أمر أعم من النبوة والرسالة، وهما درجتان خاصتان منها؛ كما أنها مقام دائم، أما النبوة والرسالة فمؤقتتان، والأنبياء والرسل بما فيهم من الولاية، أكمل منهم بما فيهم من النبوة والرسالة؛ ولم يزعم ابن عربي أن أي ولي كان أفضل منهم، فجانب الولاية عند النبي والرسل أفضل من جانب النبوة والرسالة نفسها[١]".

فإذا كان ابن عربي في هذه المسألة ليس إلا شارحاً لما كتبه الترمذي في هذا الموضوع، فإنه يكون واضحاً أن الترمذي في الحقيقة لا يفضل الولي على النبي، مادام الأنبياء هم الأولياء، قبل أن يكونوا أنبياء،

---

[١] **A, E. Afifi, The Mystical Philosophy of M. al-D Ibn al-Arabi P. ٩٤-٥**

وكل ما هناك أن النبي قد يكون في طاقته كولي، أقرب إلى الله بمعرفته الكاملة الصحيحة، منه كنبي. على أن ابن عربي قد تخطى ما عند الترمذي، فإنه يرى في نفسه أنه خاتم الأولياء، ولم يثبت عندنا أن الترمذي قبل ذلك، وأغلب الظن أنه قد يرى أن محمداً خاتم الأولياء، كما هو خاتم الأنبياء.

على أن هناك شارحاً آخر لمبدأ الترمذي في الولاية قبل ابن عربي، وهو أبو عثمان الجلالي الهجويري الفارسي (المتوفي بين سنة ٤٦٥هـ= ١٠٧٢م وبين سنة ٤٦٩هـ= ١٠٧٦م) في كتابه الفارسي المشهور "كشف المحجوب"، فقد عقد فصلاً عن تعاليم الحكيمية، أتباع الحكيم الترمذي، ولا نتعجل الحكم بتفضيل شرحه على ابن عربي، فإنه مثل ابن عربي يكتب في ضوء آرائه الخاصة، ولم يفصل بعد في مدى اتفاق أخباره مع الحقيقة، وإن كان من الموثوق بهم، وهذا بعض ما ذكره في كتابه عن آراء الحكيم في الولاية، كتبها بعده بنحو ١٦٠ عاماً:

قال الهجويري: "فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية، وقد أكد هذه الحقيقة كل الشيوخ وإن اختلفت عباراتهم في ذلك؛ وكان محمد بن علي الحكيم هو أول من طبق هذا الاصطلاح على أصول التصوف، وقد ألف الشيوخ كتباً في هذا الموضوع، ولكنها نادرة، وليست في متناول أحد؛ وسأشرح لك أقوال هذا العالم الصوفي صاحب هذا الرأي، حتى تنتفع بهذه الآراء، وكذلك من يقع هذا الكتاب في يده.

فاعلم أن الولي هو لفظ جار على ألسنة الناس وجاء في القرآن

وحديث الرسول....

فمن هذا نرى أن الله تعالى اختار له أولياء اختصهم بصحبته، واختارهم حكاماً لملكه، ومنحهم أنواع الكرامات، وطهرهم من فساد الطبع، ومن وساوس النفس والهوى، وجمع أفكارهم فيه، ومعرفتهم به؛ كانوا فيما مضى، وهم الآن كذلك، وإلى ما شاء الله إلى يوم القيامة، لأن الله فضلهم على غيرهم ووعد بحفظ دين محمد. ولما كانت أدلة النقل والعقل لهذا الدين هي عند العلماء، فإن دلائل الرؤية والبصيرة إنما هي عند الأولياء والمختارين عند الله. ويخالفنا في هذا الأمر فريقان، وهم المعتزلة والحشوية؛ فإما المعتزلة فإنهم يقولون بأفضلية المسلم على غير المسلم. ولكن إذا كان الولي لا يفضل غيره، فالنبي كذلك لا يفضل غيره، وهذا كفر. والحشوية العوام يقولون بالتفضيل، ولكنهم ينكرون وجود مثل هذا النوع الآن، وإن كان موجوداً في الماضي، وهو إنكار أيضاً...

والله تعالى جعل دلائل النبوة باقية إلى الوقت الحاضر، وجعل الأولياء مظهراً لهذا المعنى، علامة واضحة مستمرة على نبوة محمد. فجعل الأولياء حكام هذا العالم، واختارهم لهذا العمل، وجعلهم لا يتبعون آثار حواسهم؛ فببركة حلولهم تمطر السماء، وبنقاء حياتهم ينبت الزرع من الأرض، وبدعائهم ينتصر المسلمون على الكفار. وهم ليسوا معصومين من الذنب، لأن ذلك للأنبياء خاصة، ولكنهم محفوظون من الفتنة بالولاية.

هذه هي أصول مذهب محمد بن علي الحكيم الترمذي، وكذلك الجنيد وأبو الحسن النوري والحارث المحاسبي، وغيرهم من أهل الحقائق.

واعلم أن شيوخ الصوفية بوجه عام، يقولون إن الأولياء في كل وقت وحال، أقل رتبة من الأنبياء، وإن الأنبياء أفضل من الأولياء، لأن نهاية الولاية بدء النبوة، وكل نبي ولي، وبعض الأولياء ليسوا بأنبياء، والأنبياء خالون دائماً من الصفات الإنسانية، والأولياء كذلك في بعض الأوقات؛ والحال عند الولي هو مقام عند النبي، وما هو عند الأولياء مقام هو عند الأنبياء حجاب. هذه هي أصول أهل السنة والمتصوفة[١]".

وفي ضوء هذا كله، نستطيع أن نصل إلى النتائج الآتية، فيما يختص بالولاية، وما يتعلق بها، كما وضع ذلك الحكيم الترمذي:

يرى الحكيم الترمذي: أن الولاية، وهي القربة إلى الله تعالى، تعم المؤمنين، قال تعالى: "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور". وهناك ولاية خاصة، وهذه درجات ومنازل؛ فمنها منزلة المحدثين، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إن فيكم محدثين، وإن منهم عمر"[٢]؛ وهم الذين اختارهم الله، وقربهم إليه بالمناجاة والحديث، وأنزل عليهم السكينة، واختصهم بالاسم الخفي، وجعل لهم التصرف في الخلق بالحق.

ومن الولاية ولاية الأنبياء والمرسلين، وهؤلاء يحملون في نفوسهم الولاية في الباطن بخواصها، ولكنهم قد امتازوا بخاصة، وهي الوحي والنبأ والرسالة، وهو ظاهر النبوة. فكل نبي ولي، وليس كل ولي نبياً؛ وقد

---

[١] كشف المحجوب للهجويري (ترجمة نيكلسون) ص٢١٠-٢٤١.

[٢] راجع مقدمة ابن خلدون (طبعة بيروت) ص١٠٩-١١٠.

يخص الله ولياً من أوليائه بشيء لا يوجد عند النبي، ودليل ذلك قصة سليمان عليه السلام ورسوله، قال تعالى: "فقال أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأ بنبأ يقين...." الآيات. فهذا خلق غير الأنبياء أحيط بما لم يحط به النبي.

والولاية أفضل من النبوة، وذلك على معنى أن ولاية النبي أفضل من نبوته، لأن نبوة التشريع متعلقة بمصلحة الوقت، والولاية لا تعلق لها بوقت؛ والنبوة صفة الخلق دون الحق، والولاية صفة الحق، ولهذا يطلق على الله اسم الولي دون النبي. وقد كره القوم إطلاق القول في ذلك بدون هذا التقييد.

والنبي معصوم من المعاصي، والولي محفوظ من الإصرار على المعاصي؛ كما أن النبي ظاهر الحال، ولكن لولي مستور الحال، والكون ناطق بولايته؛ والنبوة مختومة من حيث الإنباء والإخبار، ولكنها دائمة من حيث الولاية والتصرف، لأن نفوس الأولياء حملة تصرف ولايته، يتصرف بهم في الخلق بالحق إلى قيام الساعة.

وكما أن النبوة تمثل دائرة متألفة في الخارج من نقط وجود الأنبياء، كاملة بوجود النقطة المحمدية، فالولاية أيضاً دائرة متألفة في الخارج من نقط وجود الأولياء، كاملة بوجود النقطة التي تختم بها الولاية. فالنبوة لها خاتم، يكملها كذلك لها خاتم يكملها.

هذا هو السبب في وجود الخاتم. وبقي أن نعرف ما هو الخاتم؟ وظاهر كلام الترمذي أن الخاتم مقام يستحقه الولي حيث (يناولة مفاتيح

الكرم، وخزائن المنن) والمفروض على هذا أن يكون محمد خاتم الأولياء، فهو (صاحب المقام المحمود... وصاحب المغفرة)، كما هو خاتم الأنبياء؛ وعلى هذا يكون المراد بالخاتم "الإنسان الكامل"، ويشهد لهذا ما قاله صاحب الإنسان الكامل: "حيث وقع في مؤلفاتي الإنسان الكامل، فإنما أريد به محمد". ثم قال: "وللإنسان الكامل ثلاثة برازخ، وبعدها المقام المسمى الخاتم"؛ ولكنا إذا اعتبرنا الخاتم بمعنى الكامل لا الآخر- والمفروض أن الولاية قائمة إلى قيام الساعة- فكيف يمكن أن يستقيم هذا في خاتم الأنبياء، وهل يجوز أن يبقى باب النبوة مفتوحاً، كما أن باب الولاية مفتوح؟ هذه هي نقطة الخطر والغموض في هذا المذهب، بناء على هذا المعنى.

أما إذا أردنا بالخاتم الآخر، كما هو المتبادر، فلا يكون محمد خاتم الأولياء، مادامت الولاية مستمرة بعده؛ ولكن من عسى أن يكون خاتم الأولياء غير محمد؟ ألا يجوز أن يكون هذا الخاتم أفضل من خاتم الأنبياء، مادامت الولاية في طبيعتها أفضل من النبوة؟ وهذا أيضاً موضع خطر بالنسبة لهذا التفسير الأخير.

وأياً كان الأمر، فليس من شك في أن هذا المذهب كان محل نقاش وجدال في الأوساط العلمية وغيرها في بلده، وكان سبباً لطرده منها، وما قاله السلمي من عدم فهم الناس له، إنما هو حسن اعتذار، وإلا فالموضوع مهما قبلناه على أية ناحية من نواحيه، يسوق إلى نتائج لا يوافق عليها الرأي العام الإسلامي، سواء في ذلك (١) تفضيلة الولاية على النبوة، أو (٢)

اختصاص الولي بما ليس عند النبي، أو (٣) القول في الخاتم[1].

وبالرغم من أن هذا المذهب كان له أثر بعيد في التصوف الإسلامي، في تحديد الولاية ودرجات الأولياء وما إلى ذلك، بالرغم من هذا، إنه من الغريب أن مثل أبي نصر السراج في كتابه "اللمع"، لم يذكر مرة هذا الإمام، ولم يسق إلينا قولاً واحداً من أقواله، وكتابه كما هو معروف مرجع للصوفيه وتعاليمهم، حتى شيوخهم غير المعروفين أو المشهورين؛ وكذلك أبو بكر الكلابذي في كتابه "التعرف، لمذاهب أهل التصوف"، لم يذكره الحكيم الترمذي، مع أنه عقد فصلاً خاصاً عن النبوة والولاية، جاء فيه بمثل ما جاء عند الهجويري من النتائج[2]؛ ثم أبو القاسم القشيري، ذكر الترمذي ولكنه لم يعطه إلا قليلاً مما يستحق؛ وهذا يجعلنا نشعر بأن السبب في إهمال هؤلاء الكتاب الكبار، الذين كتبوا عن الصوفية في القرنين الرابع والخامس، لم يقتنعوا بحال الترمذي، ليتخذوا منه دليلاً على خطتهم في الدفاع عن الصوفية، ضد أولئك الذين يرونها مخالفة للكتاب والسنة.

وإذا كان الترمذي قد وضع "للولاية" قواعدها وأصولها، وهو الأمر الذي بنى عليه الصوفية نظمهم في ذلك بعد، وكان له أثر هام في تعاليمهم في الولاية، فهو قد وضع لهم قواعد "الرياضة النفسية"، ورتب

---

[1] راجع أيضاً "كشاف اصطلاحات الفنون" للتهانوي مادة "ولي" و "صوفي" و"إنمان"– وبالرغم من هذا الإبهام الترمذي معترف بأن محمداً خاتم الرسل، يقول في أدب النفس: "قد ختم الله تعالى بالرسول الرسالة، ولم يبق في الأرض بعده إلا الملهمون والمحدثون".

[2] كتاب التعرف (طبعة أربري) ص٤٣–٥١.

لهم أصولها الظاهرة والباطنة، ورسم للصوفية الطريق لأدب النفس ورياضتها، وتبعوا ذلك بعده شبراً، بشبر وذراعاً بذراع.

ففي هاتين الرسالتين: "الرياضة" و"أدب النفس"- وهما بطبيعة الحال تحتاجان إلى بحث أدق وأوسع، لا يتسع له هذا المقام- حاول شرح أجزاء الجسم الإنساني، وربط بكل جزء منها عملاً من أعمال النفس والخلق، وشرح الاضطرابات النفسية، والخصال الخلقية، على أساس الارتباط بين بعض أعمال الجوارح وبعض.

فالقلب هو ملك على الجوارح، وهو بضعة جوفاء من لحم، في بضعة أخرى هي الفؤاد، وهو بيت له عينان وأذنان وباب في الصدر، وجعل الصدر ساحة هذا البيت؛ وهو بمنزله قنديل معلق في بيت، وهو الصدر. والعقل في الدماغ له باب إلى الصدر، يشرق شعاع هذا العقل على عيني الفؤاد، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمر، ويميز بين الحسن والقبيح، وهي المعرفة، وحائط هذا البيت الصدر، يشرق عليه نور المصباح، فإذا رفعت شيئاً بين الحائط والمصباح، وقع لذلك الشيء ظل على الحائط....

والنفس مسكنها الرئة، ثم هي منفشة في جميع الجسد؛ ووضع بين القلب والرئة وعاء رقيقاً، فيه ريح هفافة، تجري في العروق مجرى الدم، وهي نار مضيئة، موضوع في هذه النار الفرح والزينة، وسماها شهوة. فإذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء، لعارض ذكر شيء، أحست النفس ذلك، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح، فيفور دخان الشهوات، حتى

يتأدى ذلك إلى الصدر، فتحيط بفؤاده، وتبقى عينا الفؤاد في ذلك الدخان، يحول بين عيني الفؤاد وبين النظر إلى نور العقل...

ثم يشرح في أثناء ذلك نظريته في الرياضة والمجاهدة:

فالقلب مقهور بما فيه، والعقل منكمن، والصدر ممتلئ من دخان تلك الشهوة، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب؛ لأن العقل قد غاب، والمعرفة قد انفردت، والذهن قد تبدد، والحفظ مع العقل منكمن في الدماغ، والنفس قد قامت على ذنبها، بما وجدت من القوة في تلك الشهوة...

فلما كان العبد بهذه الصفة، أمر بالمجاهدة، والجهاد أن يروض نفسه فيؤدبها، وإلزام كل جارحة من جوارحه السبع– وهي اللسان، والسمع، والبصر، واليدان، والرجلان، والبطن، والفرج– الفطام عن عملها حلالاً أو حراماً، حتى تموت تلك الشهوة؛ فإذا ترك الرياضة أحاطت فورات بالقلب الشهوات كالدخان والغيم؛ ومن لم يرض نفسه فإذا جاهد فربما غلب وربما غلب. فأما الأكياس فراضوا أنفسهم فأدبوها، فامتنعوا عن الحلال المطلق لهم، حتى هدأت جوارحهم؛ فإذا استعملوها كان القلب أميراً قاهراً، فاستعمل تلك الشهوة بما يريد العقل، فهناك يملك نفسه.

ثم يقول: وهذا الذي وصفنا من تركك الشهوات، وتجنبك اللذات، ليس تحريم ما أحل الله لك، ولكن تأديب لنفسك، ورياضة لها... فإذا صفا قلبك من الهوى حينئذ تجد اليقين، لأن اليقين نور يحدث على قلبك من نور معرفتك، والقلب إذا أقبلت على الله وغلبه الهوى، لم

يشرق بالنور الأعظم، لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة وبين النور الأعظم، وهو اليقين– فإذا ذهب الهوى فنظرت له تلاقي النوران، فأشرق في صدرك، فأبصرته عين قلبك، فصار يقيناً.

وهكذا يسوق لنا كل ما يتعلق بالرياضة، مستشهداً بالقرآن والحديث، ضارباً الأمثال المختلفة في طرق التأديب، في أسلوب ممتع مقنع، يحمل في طياته معرفة واسعة بالحكمة والدين وأسرار النفس، ووضع بهذا أساس الرياضة لمن جاء بعده.

ومن الخير أن نختم القول في مذهب الحكيم الترمذي بهذا الإجمال الفريد، الذي ساقه الأستاذ الكبير ماسنيون، قال: "كان أول مسلم صوفي ظهرت عنده آثار التغذية من الفلسفة اليونانية؛ وبهذا مهد السبيل لأعمال الفارابي. وتعتبر فلسفة الترمذي فلسفة ثانوية، فإنه كان يحرص على أن يجدد بشكل منسجم مع العقل، عرض المحاولات الاعتقادية عند ابن كرام... والترمذي نظري في أسلوبه، وقد انتهج هذا النهج ليلم في جريدة واحدة بكل التجارب الصوفية الباطنية... ومذهبه في "العقل" مذهب توزيعي، يصنف المعرفة أصنافاً بين أفراد المؤمنين، وقد مهد بهذا السبيل لمذهب المعرفة "الغنوسية" عند ابن التستري. ويشرح الترمذي نظرية الكسب كرد فعل للمرجئة. أما من الناحية النفسية الصوفية، فقد بين بإجادة "علم القلوب"، ولكنه يفرق بين القلب والصدر؛ والقلب عنده الأداة للفكر، وهو في نفس الوقت مادة من اللحم. وهو يدافع عن درجات الولاية، وعلى الأخص من ناحية الإشراق العقلي، بدون أن يسمح لتدخل الوجد الذي يغير من الجسم، أو للحب

الذي يغير من الإرادة... وكان لتلميذه أبي بكر محمد الوراق الترمذي، أثر في مدرسة الملامتية[1]"

الإخراج:

ولما صح العزم على إخراج هذه السلسلة في الآداب الصوفية. رأينا أن نبدأ الكتاب الأول منها بهاتين الرسالتين لأبي عبدالله الحكيم الترمذي، وهما من أمهات كتبه، التي توضح أهم تعاليمه في الناحية النفسية، والخلقية خاصة. وقد اعتمدنا في الإخراج على هذين المخطوطين:

المخطوط أ:

وهو مخطوط بمكتبات إستانبول (مكتبة عاشر رقم ١٤٧٩) ويحتوي على مجموعة من رسائل الترمذي، هي:

(١) كتاب العادة والنفس، ص١٣٢–١٥٨

(٢) منازل العباد في العبادة، ص١٥٩–١٦٧

(٣) كتاب العقل والهوى، ص١٦٨–١٧٣

(٤) كتاب الأمثال من الكتاب والسنة، ص١٧٢–٢٣١

(٥) كتاب حقيقة الآدمية، وهو كتاب الرياضة، ص٢٧١–٢٨٦

وقد كتب هذه المخطوط بالخط الفارسي الواضح، ولم يؤرخ؛ ويغلب على الظن أنه كتب حوالي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر

---

[1] L. Massignon; Essai sur les origins... P. ٢٥٦-٢٦٤

الميلادي)، وتحتوي كل صفحة منه على ٢٧ سطراً. ويظهر في هذا المخطوط عدم الاهتمام الملحوظ في كتابته، وأن الكاتب لم يكن عربياً، وكل ما هناك أنه وجد أمامه الأصل، فاجتهد في نسخه؛ وبالرغم من ورود أخطاء كثيرة- وضعنا بعضها في التعليقات- كانت هذه النسخة مهمة لتصحيح بعض الأخطاء، وأضافة بعض الزيادات التي لا توجد في المخطوط (ب).

المخطوط ب:

وهو مخطوط في حوزة مستر شستربيتي بلندن، ويحتوي على مجموعة من رسائل الترمذي، هي:

(١) كتاب الرياضة، ص٤٢-٦٦.

(٢) مختارات من كتاب الصفاء، ٦٧-٧٩ أ

(٣) رسالة بلا عنوان، ٧٩ب- ٨٤.

(٤) أدب النفس.

(٥) رسالة بلا عنوان.

وقد كتب هذا المخطوط بالنسخ، ولم يؤرخ أيضاً، وأغلب الظن أنه كتب في القرن الثامن الهجري، (الرابع عشر الميلادي)، وفي كل صفحة ١٩ سطراً. وكان كاتبه- على العكس من المخطوط الأول- على معرفة جيدة، الأمر الذي جعله يتفادى كثيراً من الأغلاط.

وقد وضعنا في تعليقاتنا الاختلافات الجوهرية في المخطوطين، ووجدنا من الخير ألا نملأ الصفحات بذكر أخطاء واضحة، ترجع إلى

عدم العناية أو عدم المعرفة.

ولا يسعنا إلا أن نعبر عن شكرنا للمستر شستربيتي، على وضعه المخطوط تحت تصرفنا؛ وكذلك لمدير المكتب الهندي بلندن (India Office) لسماحه لنا باستعمال مصورة مخطوط إستانبول المحفوظة بالمكتبة، كما نشكر لأصحاب مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده عنايتهم الكريمة بطبع هذا الكتاب، والسلام.

أ. ج. أربري، علي حسن عبدالقادر

لندن في أول جمادي الآخرة سنة ١٣٦٦–٢٢ أبريل لسنة ١٩٤٧

كتاب الرياضة

للإمام أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

بسم الله الرحمن الرحيم

[1]قال أبو عبدالله محمد بن علي بن الحسن الترمذي رحمه الله عليه: الحمد لله رب العالمين، ولي الحمد وأهله. أما بعد، فإن الله تعالى خلق الآدميين لخدمته، وخلق ما سواهم سخرة لهم؛ فقال تعالى في تنزيله: (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً)[2]، ثم قال: (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه)[3]، فجعل في كل مسخر ما يحتاج إليه هؤلاء الخدم، وما يرجع نفعه إليهم، وهم كلهم قانتون، يؤدون[4] السخرة إلى هؤلاء الخدم؛ فأظهر خلقهم من القدرة بقوله "كن"، وأظهر خلق هؤلاء الخدم من المحبة بيده؛ فعجن طينته، وصوره بيده؛ ثم جعله ذا أجزاء، كل جزء منه يعمل عملاً غير عمل الآخر، ثم نفخ فيه من روحه، وهو روح الحياة، ونفست الطينة، فبدت[5] النفس واستقرت، وتنفست[6] في الجوف؛ فجعل في ظاهره يدين ذواتي أصابع ومفاصل، يبسط ويقبض؛ ورجلين موشجتين في الوركين، ذواتي

جعلنا أرقام السور والآيات على حسب ترقيم "مصحف الملك" المطبوع بمطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بالقاهرة.

[1] زيادة في أ

[2] سورة ٢ آية ٢٩.

[3] سورة ٤٥ آية ١٣.

[4] في أ: "مؤدون".

[5] في أ: "فبدرت".

[6] زيادة من أ

ساقين؛ وقدمين يختلف بهما في قطع المسافات؛ وعينين بهما يشتمل على الألوان لذة وجهداً[1]؛ وأذنين بهما يتناول الأصوات لذة وخبراً؛ ولساناً يديره في قبو حنكه إلى شفتيه، ليتلفظ بنغماته من صدره إلى شفتيه، مؤدية تلك النغمات معاني الأمور التي يعقل، وتتردد في صدره صور تلك الأمور، فتصير تلك الصور حروفاً مؤلفة، فيبرزها بصوت يسمع به آذان المستمعين له، حتى تصير تلك الأسماع قمعاً لهذا الصوت، فيتحول ما في صدر هذا من علم الأمور، إلى صدر المستمع، من طريق فم هذا إلى أذن الآخر، فيكون قد أفرغ ما في صدره من صور الأمور ومعانيها بالحروف والصوت، إلى صدر صاحبه. وجعل له منخرين للنفس والمشام، ومعدة صيرها دار رزقه؛ وباب هذه الدار متصل بالقبو[2]، وبابين في أسفل جسده، أحدهما مخرج للذرية، والآخر مخرج الفضول والأذى؛ وذلك أن العدو لما غره حتى أكل من الشجرة، وجد السبيل إلى معدته بتلك الأكلة التي أطاعه فيها، فجعله مستقره، فنتن ما في المعدة لرجاسة العدو؛ فمن هاهنا وجب علينا غسل الأطراف مما يظهر من المعدة من الغائط والبول وريحهما؛ ثم وضع في جوفه بضعة جوفاء سماها قلباً وفؤاداً، فما بطن منها فهو القلب، وما ظهر منها فهو الفؤاد؛ وإنما سمي قلباً لأنه يتقلب بتقليب الله عز وجل إياه، لأنه بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، يقلبه بمشيئاته فيه؛ وسمي فؤاداً لأنه غشاء

---

[1] في أ: "وخبراً".

[2] في أ: "بالقبة".

لتلك البضعة الباطنة، ومنه يقال: هذا خبز فئيد،وخبز ملة[١]، لأنها خبزة قد ظاهرها أخرى؛ وجعل له على هذا الفؤاد عينين وأذنين، وباباً في الصدر[٢]، وصير القلب بيتاً له عينان وأذنان، وباباً في الصدر؛ وجعل الصدر ساحة هذا البيت؛ وجعل إلى جانبه بضعة أخرى سماها كبداً، وجعلها مجمع عروق هذا الجسد كله، ومنه ينقسم ما يخرج[٣] من المعدة من قوة الطعام الذي طحنته المعدة، حتى صار دماً طرياً، فجرى في جميع العروق؛ وألصق بأسفله بضعة أخرى، فسماها طحالاً، وإلى جانب الأخرى سماها رئة، ومسكن النفس فيها، ومنها تتنفس النفس لحياتها[٤] التي فيها، فتخرج الأنفاس إلى الفم والمنخرين؛ ثم وضع بين القلب والرئة وعاء رقيقاً، فيه ريح هفافة، تجري في العروق[٥] مجرى الدم، وأصل تلك الريح من باب النار، مخلوقة من نار جهنم، لم يصل[٦] إليها سلطان الله وغضبه، فتسود كما أسودت جهنم، بل هي نار مضيئة حفت النار بها؛ موضوع في هذه النار الفرح والزينة، وسماها شهوة؛ وإنما سميت شهوة لاهتشاش النفس إليها، يقال؛ اهتشت واشتهت؛ الاهتشاش في الظاهر، والاشتهاء في الباطن، وكلاهما في الحروف عددهما سواء، إلا أنه قدم الهاء هاهنا وأخر هناك، ليكون فرقاً بين

---

(١) خبز الملة: ما يخبز في الملة، وهي الرماد الحار يحمى ليدفن فيه الخبز لينضج.
(٢) زيادة من ب.
(٣) في أ "ما يجرى".
(٤) في أ "بحياتها".
(٥) زيادة من ب.
(٦) في أ "يطرأ".

النوعين، فالنفس إذا هبت تلك الريح من ذلك الوعاء لعارض ذكر شيء، أحست النفس بذلك، فالتهبت نار الحرارة بتلك الريح، والنفس مسكنها في الرئة، ثم هي منفشة في جميع الجسد، والروح مسكنه في الرأس إلى أصل الأذنين، ومعقلها[1] في الوتين، وهي منفشة في جميع الجسد، والروح فيه حياة، والنفس فيها حياة، فهما يعملان في جميع الجسد لحياتيهما، حتى تتحرك الجوارح في جميع الجسد في الظاهر والباطن بالحياتين اللتين وضعتا فيهما؛ والروح نور فيه روح الحياة، والنفس ريح كدرة جنسها أرضية، وفيها روح[2] الحياة. ووضع الرحمة في الكبد، والرأفة في الطحال، والمكر في الكليتين، وعلم الأشياء في الصدر، وجعل مستقر الذهن في الصدر، ثم هو متفش في البدن كله، والذهن يقبل العلم جملة، وقرينه الحفظ؛ وجعل في ناصيته الفهم، وجعل له طريقاً إلى عين الفؤاد، فالحفظ مستودع العلم، فإذا احتاج الفؤاد إلى شيء لحظ إلى الحفظ، فأبرز الحفظ له علم ذلك الشيء المستودع الذي قد تعلمه. وجعل ماء الذرية في صلبه، فمنه ماء أخذ عليه الميثاق يوم أخرجهم من الظهور، فعرضهم على آدم صلى الله عليه وسلم؛ ومنه ماء لم يؤخذ عليه الميثاق، وجعل مجراه من صلبه إلى نفسه. ووضع الفرح في قلبه، وجعل مجراه إلى صلبه، لتتأدى حرارة ذلك الفرح إلى الصلب، فتذيب ماء الصلب، فبقوة هذا الفرح يخرج ذلك الماء، فيدفق به؛ وإنما صار دفقاً لقوة الفرح، وهبوب رياحها، وضيق المخرج؛ فإذا

---

(١) في أ "ومعلقها".

(٢) في أ "ريح".

افتقد الإنسان الفرح عجز عن الدفق. فهذا لعامة الآدميين. ثم خص المؤمنين بنور العقل، فجعل مسكنه في الدماغ، وجعل له باباً من دماغه إلى صدره، ليشرق شعاعه بين عيني الفؤاد، ليدبر الفؤاد بذلك النور الأمور، فيميز بين الأمور ما حسن منها وما قبح، ووضع نور التوحيد في باطن هذه البضعة، وهي القلب، وفيه نور الحياة فحيي القلب بالله تبارك وتعالى، وفتح عيني الفؤاد، فأشرق نور التوحيد إلى الصدر من باب القلب، فأبصر عينا الفؤاد بنور الحياة التي فيهما نور التوحيد، فوحد الله عز وجل، وعرفه، وميز العقل تلك العلوم التي أعطى الذهن في صدره جملة، فيصيرها شعباً شعباً، فصارت معرفة حين انشعبت، فهذا عمل العقل في الصدر.

والهوى أصله من نفس النار، فإذا خرج ذلك النفس من النار، احتمل من ذلك الحفوف[1] من الشهوات بباب النار فيها الزينة والأفراح، فأورد على النفس. فإذا نالت النفس ذلك الفرح والزينة، هاجت[2] بما فيها من الفرح والزينة الموضوعة إلى جانبها[3] في ذلك الوعاء، وهي ريح حارة، فدبت في العروق، فامتلأت العروق منها في أسرع من الطرفة، والعروق مشتملة على جميع الجسد، من القرن إلى القدم؛ فإذا دبت في العروق، ولذت النفس ديبها وانفشاشها[4] في الجسد، وامتلأت النفس لذة، وهشت إلى ذلك الشيء، فتلك شهوتها

[1] في أ: "المحفوف".
[2] في أ: "تلاحت".
[3] في ب: "التي جاءت بها".
[4] في أ: "وانهشاشها".

ولذتها، فإذا تمكنت النفس بتلك الشهوة واللذة من جميع الجسد، فصارت تلك الشهوة نهمة على القلب، والنهمة غلبة الشهوة وغليانها، فإذا غلت الشهوة غلبت على القلب، فيصير القلب منهوماً، وهو أن تقهر القلب حتى تمتهنه، فتستعمله بذلك، فيصير سلطان الهوى والشهوة مع النفس ومسكنها في البطن، وسلطان المعرفة والعقل والعلم والفهم والحفظ والذهن في الصدر، وجعل المعرفة في القلب، والفهم في الفؤاد، والعقل في الدماغ، والحفظ قرينه؛ وجعل للشهوة باباً من مستقره إلى الصدر، يفور دخان تلك الشهوات التي جاء بها الهوى، حتى يتأدى ذلك إلى الصدر، فيحيط بفؤاده، وتبقى علينا الفؤاد في ذلك الدخان، وذلك الدخان اسمه الحمق، قد حال بين عيني الفؤاد وبين النظر إلى نور العقل ماذا يدبر له؛ وكذلك الغضب إذا فار، فهو كالغيم يقف بين عيني الفؤاد حتى يصير العقل منكمناً، لأن العقل مستقره في الدماغ، وشعاعه مشرق إلى الصدر، فإذا خرج ذلك الغيم (غيم الغضب) من الجوف إلى الصدر، امتلأ الصدر منه، وبقيت عينا الفؤاد في ذلك الغيم، لأن شعاع العقل قد انقطع، وحال الغيم بينه وبين الفؤاد، فصار الفؤاد من الكافر في ظلمة الكفر، وهي الغلفة[1] التي ذكرها الله تعالى في التنزيل: "وقالوا قلوبنا غلف"[2] وقال تعالى: "بل قلوبهم في غمرة[3] من هذا". وصار الفؤاد من المؤمن في دخان الشهوات وغيوم الكبر،

---

[1] في ب: "الغفلة".

[2] سورة ٢ آية ٨٨.

[3] سورة ٢٣ آية ٦٣.

فذلك غفلة.

ومن الكبر أصل الغضب والكبر في النفس لما أحست بما ولى الله تعالى من خلقها، فيبقى ذلك الكبر فيها. فهذه صفة ظاهر الآدمي وباطنه. فوقعت الجباية من الله تعالى والخيرة على هذا الموحد، من كل ألف واحد، وبقى تسع مئة وتسعة وتسعون، رفع البال عنهم، وجعل باله لواحد من كل ألف من الآدميين، فقسم الحظوظ يوم المقادير بالبال، ورفض من لم يبال به، فخابوا عن الحظوظ، فلما استخرجهم ذرية من الأصلاب استنطقهم، فاعترف له أهل الحظوظ من باله، طوعاً لقوله عز وجل حين قال: "ألست بربكم"[1]. واعترف من خاب عن الحظوظ، ومن لم ينل من باله بقوله: "بلى" كرهاً؛ فذلك قوله عز وجل: "وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً"[2]، فيصيرهم فريقين: عن اليمين وعن الشمال، ثم قال تعالى: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، أي لا أبالي بمغفرتي أن تنالهم؛ وهؤلاء في النار ولا أبالي، أي ولا أبالي بهؤلاء إلى أين يصيرون؛ ثم ردهم إلى صلب آدم عليه السلام؛ فيخرجهم في أيام الدنيا للأعمال وإقامة الحجة، فكل من وقعت عليه جبايته واختياره له، وصبغ قلبه، أي غمس قلبه في ماء الرحمة حتى طهره به، وهو قوله عز وجل "صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة"[3] ثم أحياه بنور الحياة، وقد كان قبل ذلك بضعة من لحم جوفاء؛ فلما أحياه بنور الحياة تحرك وفتح عينيه

---

[1] سورة ٧ آية ١٧٢.

[2] سورة ٣ آية ٨٣.

[3] سورة ٢ آية ١٣٨.

اللتين على الفؤاد، ثم هداه بنوره، وهو نور التوحيد ونور العقل؛ فلما أشرق في صدره، واستقر الفؤاد وهو القلب إلى ذلك النور، فعرف ربه عز وجل بذلك، فذلك قوله عز وجل: "أو من كان ميتاً فأحييناه[١]"، أي بنور الحياة، ثم قال تعالى: "وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس"، أي نور التوحيد يمشي من ذلك النور في الناس[٢]، ثم أوله قلبه بذلك النور إليه، حتى اطمأنت النفس وسكنت إلى أنه وحده لا إله غيره، فعندها نطق اللسان عن طمأنينة النفس وموافقتها للقلب بلا إله إلا الله، وذلك قوله عز وجل: "وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله" وهو قوله عز وجل: "ياأيتها النفس المطمئنة"[٣]، فلما اطمأنت النفس حين رأت تلك الزينة التي زين العقل بين عيني الفؤاد توحيد الرب عز وجل، وجدت حلاوة حب الله تعالى، التي وردت على القلب مع نور التوحيد؛ فلما رأت تلك الزينة وجدت حلاوة الحب الذي في نور التوحيد، فعندها اطمأنت وسكنت إلى توحيده، فشهدت بلا إله إلا الله، وذلك قوله عز وجل: "حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم".[٤] فلما نالت النفس تلك الزينة كرهت الكفر والفسوق والعصيان؛ فالمؤمن إذا أذنب فإنما يعصى بالشهوة والنهمة وهو كاره للفسوق والعصيان، ومع الكراهية يفسق ويعصى بغفلة، ولا يقصد الفسق والعصيان كما قصد إبليس، فتلك الكراهية موجودة فيه، والشهوة غالبة عليه، والكراهية من أجل التوحيد

---

[١] سورة ٦ آية ١٢٢.

[٢] زيادة من "ب".

[٣] سورة ٨٩ آية ٢٧.

[٤] سورة ٤٩ آية ٧.

الذي فيه، إلا أن القلب مقهور بما فيه، والعقل منكمن، والصدر ممتلئ من دخان تلك الشهوة، والنفس بما أوردت قاهرة للقلب، لأن العقل قد غاب، والمعرفة قد انفردت، والذهن قد تبدد، والحفظ مع العقل منكمن في الدماغ، والنفس قد قامت على ذنبها، بما وجدت من القوة في تلك الشهوة، والعدو يزين ويرجى ويمنى المغفرة، ويدل على التوبة، حتى يجرئه قلباً ويشجعه.

فلما كان العبد بهذه الصفة، أمر بالمجاهدة، فقال عز وجل: "وجاهدوا في الله حق جهاده".[1] ثم لما علم أن المجاهدة تشتد وتصلب على العباد، أخبرهم عن منته وحسن صنيعه، وبره ولطفه بهم، فقال عز وجل: "هو اجتباكم، وما جعل عليكم في الدين من حرج"؛ يعلمهم أنه لو لم يجتبهم، ولم يوقع اختياره عليهم، ما كانوا ينالون نور الرحمة ونور المعرفة، وكانوا أسارى في يد العدو، وحطباً للنار، فأخبرهم أنه اجتباهم، ثم قال عز وجل: "ما جعل عليكم في الدين من حرج"[2]. يعلموهم أني حين ألزمت جوارحكم أمري ونهيي، لم أضيق عليكم حتى تحرجوا، بل أبحت لكم، ووسعت عليكم ما لا يضيق عليكم، حتى تفزعوا إلى الحرام، ولم أحملكم فرائضي حملاً تعجزون عنه، ووسعت لكم في كل فريضة ما لم يضيق عليكم، وكل شهوة منعتكم عنها، أطلقت لكم من بعضها، فوضعت على كل جارحة من هذه السبع حداً، ووكلتكم بحفظها. والجوارح السبع هي اللسان، والسمع، والبصر، واليدان،

---

[1] سورة ٢٢ آية ٧٨.

[2] سورة ٢٢ آية ٧٨.

والرجلان، والبطن، والفرج؛ وجعلت مستقر هذه الشهوة في البطن، فإن اشتهى الكلام خرج سلطان تلك الشهوة إلى الصدر وإلى القلب، والقلب أمير على هذه الجوارح، فإذا غلب سلطان الشهوة وحلاوتها ولذتها على القلب، وانكمن سلطان المعرفة وحلاوتها ولذتها في القلب، وسلطان العقل وزينته وبهجته في الدماغ، تحير الذهن عن التدبير، وخمد نور العلم في الصدر[١]، فظهرت المعصية على الجوارح؛ وإذا غلب سلطان المعرفة ولذتها وحلاوتها، وسلطان العقل وزينته وبهجته، احتد الذهن، واستنار العلم، وانتشر وأشرق، وقوي القلب، فقام منتصباً متوجهاً بعين فؤاده إلى الله تعالى، وجاء المدد والعطاء، وظهرت العزيمة على ترك[٢] المعصية العارضة فإذا ظهرت العزيمة وجد القلب قوة على زجر النفس، ورفض ما عزمت عليه، فانقمعت النفس وذابت[٣]، وسكن غليان الشهوة، وماتت اللذة، وسكنت العروق، ودرست صورة تلك المعصية عن الصدر، وتخلص العبد، فأمر بالمجاهدة إذا عرض ذكر شيء على الصدر، وقد حرم الله عز وجل ذلك الشيء عليه، وذلك أنه لما عرض الذكر اهتاجت النفس لما[٤] هاجها الهوى، وأورد العدو الزينة التي وضعت بين يديه، وجعل له السبيل إلى صدره ليزين، وتلك الزينة هي الفرح الذي وصفنا أنه بباب النار، فأصله الفرح، وحشوة الزينة، وكلاهما من النار خلقاً، سميت شهوة لاهتشاش النفس، وهو قول رسول الله صلى

[١] زيادة من أ

[٢] في ب "تلك"

[٣] في أ: "وذلت".

[٤] في أ: "بما".

الله عليه وسلم: "حفت النار بالشهوات"، ولذلك قال عمر رضي الله عنه في خطبته: "إن العدو مع الدنيا، وأرصاده مع الهوى، ومكره في الشهوات". فإنما يصير العدو إلى العباد مع أفراح الدنيا وزينتها، ويرصد الهوى الذي يهيج من الآدمي، ويمكر به إذا اشتهت النفس؛ وإنما صار مكراً لأن هذه الشهوات بعضها مطلق، وبعضها محظور عليه، فيمكر به في المطلق له، ليجره إلى المحظور عليه، لأن النفس بلهاء، فإذا مرت في الحلال، فتمكنت منه، سلست في الحرام، إذا لم يكن في القلب ما[1] يقيد النفس عن الحرام، ويقويها حتى لا تسلس[2]، وقوة القلب من النور، فإذا جاهد العبد، فمن جهاده أن يروض نفسه فيؤدبها.

وأدب النفس أن يمنعها الحلال، حتى لا تطمع في الحرام، وذلك أن النفس قد اعتادت لذة التكلم بالكلام، فإذا لم يلزمها الصمت فيما لا بد منه، حتى تعتاد السكوت عن الكلام فيما لا بد منه، فقد ماتت شهوة الكلام، فاستراح وقوي على الصدق، فلا يتكلم إلا بحق، فصار سكوته عبادة، وكلامه عبادة، لأنه إن نطق نطق بحق، وإن سكت سكت بحق، لأنه سكت مخافة الوبال. وكذلك شهوة النظر، فاعتادت النفس لذة رمي البصر حيثما وقع، من غير مبالاة، فإذا لم يلزمها الخفض عما لا بد منه، وهو أن يكون خاشع الطرف، خافض النظر، اعتادت نفسه رمي البصر، لتدرك الأشياء، فإذا أرى الحرام لم يملك بصره، لأن شهوة النظر قد أخذت بعينه فملكته، فإذا ألزم عينه الغض عن النظر، ورمى بها

---

[1] في أ: "من القوة بما".

[2] في ب: "حتى تتسلس".

إلى الأرض إذا مشى وقام وقعد، ماتت شهوة النظر إلى الأشياء، واعتادت غض البصر وحفظه، فإذا نظر نظر بحق، وإذا غض غض بحق، وصار نظرة عبادة، وغضه عبادة. وكذلك شهوة السمع واليدين والرجلين والبطن والفرج. فالمجاهدة ها هنا إذا عزم العبد على مجاهدة النفس، ألزم كل جارحة من هذه الجوارح السبع الفطام عن عملها حلالاً كان أو حراماً، حتى تموت تلك الشهوة، لأن تلك الشهوة هي شهوة واحدة، أحل له بعضها، وحرم عليه بعضها، بلوى من الله تعالى لعباده، وتدبيراً لهم، فما علم أنه يصلح ويصلحون عليه أطلقه لهم؛ وما علم أنه يفسدهم وأنهم يفسدون عليه حظره عليهم، فالمطلق حلال، والمحظور حرام، وذلك مثل الكلام، فهي شهوة واحدة، بعضها حلال، وبعضها حرام؛ فالاستماع إلى الأصوات بعضه حلال، وبعضه حرام؛ والنظر إلى الأشياء بعضه حلال، وبعضه حرام؛ والأخذ والإعطاء بعضه حلال، وبعضه حرام؛ وكذلك المشي، والبطن والفرج كذلك، وإنما هي شهوة واحدة لكل جارحة، أحل للعبد إمضاء تلك الشهوة، وقضاء تلك النهمة، بصفة وهيئة؛ وحرم عليه بصفة أخرى وهيئة، كالمرأة يطؤها بالنكاح فتحل، ويطؤها بغير نكاح فتحرم عليه؛ وكذلك كل شيء خرج من هذه الجوارح من الحركات، وقد أخذ عليه يوم الميثاق ألا يعمل جارحة إلا بما أطلق له في التنزيل، وعلى ألسنة الرسل، وقبل العبد ذلك يومئذ، فأوثقه بما ضمن، فاقتضاه الوفاء، ولذلك سمي بالعجيمة "بنده" لأنه أوثق بما قبل من الطاعة في الأمر والنهي، فإذا وفي له بتلك[1] البندكية،

---

[1] في أ: "وفاه تلك".

وفى له بالعهد، وهي الجنة، فقام العبد بمجاهدة النفس عندما يعرض ذكر شهوة محرمة عليه، فعلى العبد أن يجاهدها بقلبه، بما فيه من المعرفة، وتعلقه[1] بالمواعظ التي وعظه الله عز وجل، من الوعد والوعيد، وذكر الموت والحساب والقبر والقيامة، حتى يزجر النفس والعدو، فإذا كان العبد لم يرض نفسه قبل ذلك ولم يؤدبها، ولم يعودها رفض ما ذكرنا بدءاً، من رفض هذه الشهوة المطلقة له حتى تذل وتسكن، ويلزمها خوف الله عز وجل وخشيته، لم يملك نفسه عند ذكر ما يعرض لها، ولم يقدر على تسكينها، بل هي تغلب[2] القلب بما فيها من سلطان الفرح والزينة والشهوة، فيصير القلب أسيراً للنفس، بعد أن كان أميراً على النفس؛ لأن إمارة القلب بالمعرفة، وبما أعطى من هذه الأنوار التي وصفنا، من نور العقل، ونور الحفظ، ونور الفهم، ونور العلم، ونور السكينة، فأجمل للعبد في الأمر، فقيل له جاهد في الله عز وجل حق جهاده، فمن لم يرض نفسه قبل ذلك[3]، فإذا جاهد فربما غلب وربما غلب، فلذلك يوجد العبد مرة طائعاً ومرة عاصياً في شهوة واحدة؛ فأما الأكياس فراضوا أنفسهم، فأدبوها، فامتنعوا من الحلال المطلق لهم، حتى هدأت جوارحهم، وإنما هدأت وسكنت لسكون غليان شهوة النفس، فإذا استعملوها كان القلب أميراً قاهراً، فاستعمل تلك الشهوة بما يريه العقل، ويزين له، ويحد له، فيؤدبه بأدب الله عز وجل الذي أدبه،

---

(1) في أ "ويعقله"

(2) في أ: "تقلب".

(3) في أ: "جاهداً".

فهناك يملك نفسه أن تقف على الحلال فلا تجاوزه، فهو ينطق، فإذا بلغ في منطقه مكاناً يصير ذلك الكلام عليه غيبة أو كذباً، ملك نفسه، فامتنع وتورع، لأن شهوة الكلام قد ماتت منه، فهو يتكلم لله عز وجل وابتغاء مرضاته، وكذلك النظر؛ إذا كان قد راض نفسه حتى ماتت منه شهوة النظر، ملك نفسه عند الحرام؛ وملك السمع، وسائر الجوارح السبع. روى أن سهل بن علي المروزي رحمه الله تعالى، كان إذا مشى في السوق حشا أذنيه بالقطن، ورمى ببصره إلى الأرض، وكان يقول لامرأة أخيه وهي في الدار معه: استتري مني، وكان ذلك دأبه زماناً، ثم ترك ذلك ورمى بالقطن، ورفع بصره إلى الناس، وقال لامرأة أخيه: كوني كيف شئت، فذلك منه حيث وجد شهوته ميتة. وروي عن عامر بن عبد قيس رحمه الله تعالى أنه قال: ما أبالي امرأة لقيت أو حائطاً. وروي عن بعض التابعين أنه قال: ألزمت نفسي الصمت بحصاة جعلتها في فمي، وكان إذا أكل أخرجها، وإذا فرغ وضعها في فيه؛ وكذلك إذا صلى، فبقي في ذلك أربعين سنة، حتى لزمت نفسه الصمت، فرمى بها. وروى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه مر برجل يعبث في صلاته بلحيته، فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه؛ وإنما يخشع القلب بما يتجلى له من عظمة الله عز وجل وجلاله، ويهيج من النفس الخوف والخشية والحياء منه، فيوجل القلب، فإذا خافت النفس وخشيت، فوجل القلب واستحيا، سكنت الجوارح، وملك القلب جوارحه. ووقف بها على الحدود. فإذا ترك الرياضة أحاطت بالقلب فورات الشهوات، وحلاوتها وزينتها كالدخان والغيم، فلم يستبن إشراق الأنوار، وانكمنت الأنوار بما فيها من السرور

والبهجة والزينة والحلاوة واللذة، فلم يتجل في الصدر نور العظمة والسلطان، وافتقد صاحبه الخوف والخشية والحياء أن يعملوا[١] على القلب والنفس، فأصابت النفس نهمتها بما زين لها العدو، ومناها الغرور والأماني الكاذبة، يعدها سعة المغفرة، ووفارة الرحمة، وفيض العفو والتجاوز، ويحدث نفسه بالتوبة، ليتجرأ على الذنب.

والأكياس بحثوا عن أصل هذه الأمور، ووجدوه على ما ذكرنا، فخلصوا إلى الرياضة، فقالوا: إنا لما وجدنا النفس تأشر وتبطر، وتستمر على الفرح، حتى تصير بحال من امتلائها بالفرح بالأشياء، كالسكران الذي لا يفيق من سكره، فكل شيء نالت من الدنيا من حال أو عرض أو حال[٢]، مطلق لها أو غير مطلق فرحت، فذلك الفرح سم يجري في العروق حتى يشتمل على الجسد، ويمتلئ القلب من حلاوة ذلك الفرح، ويصير أشراً بطراً، لا يذكر موتاً ولا قيامة ولا حساباً، ولا شيئاً من أهوال القيامة، فذلك فرح يميت القلب، وتستمر النفس عليه وتطيب، وتقوى الشهوة وتحتد، فهذا فرح مذموم، ذمه الله عز وجل في تنزيله، فقال: "وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع".[٣] وقال تعالى: "لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين"[٤]. ودل على الفرح المحمود، وندب إليه فقال عز وجل: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، وهو

---

[١] هكذا في ب. وفي أ: "يعملها".

[٢] في أ: "بال".

[٣] سورة ١٣ آية ٢٦.

[٤] سورة ٢٨ آية ٧٦.

خير مما يجمعون[٥]". فإذا فرح العبد بما فضله الله عز وجل على سائر العبيد، فمن عليه بالمعرفة والعقل، فاستنار قلبه، وطابت نفسه، فتعاونا على الشكر والحمد، فاستوجب المزيد، فقال عز وجل: "لئن شكرتم لأزيدنكم[١]"، ففرحه بذلك يجلب عليه المزيد، فهذا الفرح ترياق، وذلك الفرح سم، فمن شرب الترياق لم يضره السم، وإنما صار سماً لأنها زينة وفرح من جنس النار وباب النار، وهو حظ إبليس، فجاء به الهوى مع العدو إلى هذا الآدمي بهذه الأشياء الدنياوية ليبتليه، ليفرح بهذا أو يستعمله معرضاً لاهياً، أو يقبل على ربه عز وجل وداره التي مهدت له، فقد قال عز وجل في تنزيله: "زين للناس حب الشهوات[٢]"، ثم ذكر النساء، والبنين، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، والخيل المسومة، والأنعام، والحرث؛ ثم قال تعالى: "ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب". فإذا فرح العبد بهذا المزين، الذي قد خلص حب تلك الزينة وشهوتها إلى قلبه، وسماه الفرح، فاته حسن المآب، فقد وصف الله عز وجل حسن المآب، فقال: "قل أؤنبؤكم بخير من ذلكم[٣]"، ثم بين لمن هي، فقال: "للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار". فوصفها بما فيها، ثم بين المتقين من هم، فقال عز وجل: "الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار[٤]". وقال

---

[٥] سورة ١٠ آية ٥٨.

[١] سورة ١٤ آية ٧.

[٢] سورة ٣ آية ١٤.

[٣] سورة ٣ آية ١٥.

[٤] سورة ٣ آية ١٧.

عز وجل: "لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله[٥]". فمن شغله الفرح بهذه الزينة، وملك قلبه حب هذه الشهوات، فقد ألهاه عن ذكر الله عز وجل، وفاته التقوى والصبر والصدق والقنوت، وحجزه عن الإنفاق، ونومه عن الاستغفار بالأسحار، فالرائضون راضوا أنفسهم وأدبوها، بمنعها الشهوات التي أطلقت لهم، فلم يمكنوها من تلك الشهوات إلا ما لا بد منه، كهيئة المضطر، حتى ذبلت النفس، وطفئت حرارة تلك الشهوات، ثم زادوها منعاً حتى ذبلت واسترخت، فكلما منعوها شهوة آتاهم الله على منعها نوراً في القلب، فقوي القلب، وضعفت النفس، وحيي القلب بالله جل ثناؤه، وماتت النفس عن الشهوات، حتى امتلأ القلب من الأنوار، وخلت النفس من الشهوات، فأشرق الصدر بتلك الأنوار، فجلب عن النفس خوفاً وخشية وحياء، واستولى على النفس وقهرها، فالولايات على النفوس من القلوب بالإمرة التي أعطيت القلوب، بما فيها من المعرفة؛ فعلى حسب تأديب القلب النفس ينال القلب ولاية وسلطاناً، فإذا أشرقت الأنوار من القلب في الصدر، وخلا الصدر[١] من دخان الشهوات، أبرز القلب سلطانه، فانقادت النفس وسلست، وألقت بيدها سلماً، وانكمن العدو واختشى. فمن لم يرض نفسه على ما وصفنا، وأعطاها مناها من الحلال، وانكمش في أعمال البر مستظهراً به، عجل له ثواب أعمال البر في العاجل نوراً، ففي الصدر ذلك النور، وليس له من القوة ما يمنع النفس من قضاء

---

[٥] سورة ٦٣ آية ٩.

[١] في ب: القلب.

النهمة، فيمضي في الشهوات الحلال بلا نية، فيتعطل، ويبقى بلا حسنة ولا أجر، ومعه فساد الباطن، من حب الدنيا، والرغبة والرهبة من المخلوقين، وخوف فوت الرزق، وخوف المخلوقين، والحسد والحقد، وطلب العلو، وطلب العز والجاه، وحب الرياسة، وحب الثناء والمدحة، والكبر والفخر، والصلف والغضب، والحمية وسوء الظن، والبخل والمن والأذى، والعجب والاتكال على العمل، ودواه كبيرة، فكم من فعل سيء يظهر على أركان هذا مع هذه الدواهي، ففساد القلب وخراب الصدر من الفرح بالدنيا، وأحوال النفس كلما ازدادت النفس فرحاً بهذه الأشياء قويت واحتدت، واشتد سلطانها، حتى تصير شرهة أشرة، بطرة مستبدة، فإذا هويت شيئاً من الشهوات لم يملك القلب من أمرها شيئاً، ولم يتورع عن الحرام، وإن تورع عن الحرام لم يتنزه عن الفضول، وإن تنزه عن الفضول، يتناول ما احتاج إليه على غفلة، وفقد النية والحسبة، فإن تناول بنية وحسبة تناول على فقد ذكر المنة، وإن تناول على ذكر المنة، تناول على فقد رؤية المنة واللطف والبر، فهو أبداً في نقصان، في أي درجة كان، لأنه محجوب عن الله عز وجل، وإنما حجبه عن الله عز وجل الفرح بغير الله عز وجل. فالفرح المحمود على ضربين: فرح بالله عز وجل، وفرح بفضل الله ورحمته؛ فالفرح بفضل الله وبرحمته ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس معه، والفرح بالله قد غاب ذكر النفس[1] في ذكر مولاه، فقال عز وجل في تنزيله: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا"[2]، وقال تعالى فيما روي: "قل للصديقين بي فافرحوا، وبذكرى فتنعموا". وإنما

---

[1] في أ: نفسه.

[2] سورة ١٠ آية ٥٨.

يفرح بذكر الله عز وجل حين يرى منته عليه، وإنما يفرح بالله عز وجل من وصل إلى الله عز وجل، ومن كان مرعاه بين يديه في ملك من ملكه؛ والواصلون إلى قرب الله عز وجل مرعاهم تحت العرش في محل القربة.

فالأكياس صاروا إلى الله عز وجل في هذا الطريق، وتوقوا كل فرح، فما[١] فرحوا بشيء من الدنيا، أو بشيء من أعمال البر، و[٢] قالوا: إنما فساد قلوبنا من فرح النفس، لأن النفس إذا فرحت بشيء استولت على القلب، فلم ينفذ له شيء، فليس بنا التمييز بين الأعمال، لأنا لا نسير إلى الله تعالى بالأعمال، إنما نسير إليه بالقلوب نزاهة وطهارة، فإنما يدنس القلب بأفراح النفس؛ وصار القلب محجوباً عن الله عز وجل، فكانوا يصونون قلوبهم عن الفرح بكل شيء دق[٣] أو جل، للضرر الذي يحدث عنه. ومن جهل هذا الباب توقى الحرام والشبهة، وانكمش في أعمال البر، فهو في الظاهر عامر، وفي الباطن خراب[٤]؛ لأن النفس شاركت[٥] القلب في تدبير العمل، فإذا شاركت أخذت نصيبها، والهوى مقرون بالنفس، فلا يتخلص[٦] العمل لصاحبه أبداً؛ وإنما صار هذا هكذا، لأن الله عز وجل أوله قلوب العباد إلى ألوهيته، فمن صان قلبه عما تورد النفس عليه، بقي قلبه مع الله عز وجل في جميع الأحوال،

---

[١] في أ: فسواء.

[٢] زيادة في ب.

[٣] في أ: "رق".

[٤] في أ: خرب.

[٥] في أ: يشارك.

[٦] في أ: مخلص

والوله تعلق القلب به، ومن لم يصن قلبه حتى أوردت النفس عليه أفراحها التي أورد عليها[1] الهوى من باب النار، فقد صار وله قلبه إلى الهوى، فالصائن أوله قلبه الله بأفراحه وحبه، والتارك للصيانة أوله قلبه الهوى بأفراحه إلى باب النار، ولجت تلك الزينة. فالكيس لما أبصر هذا التدبير من الله تعالى أنه خلق الآدمي هكذا، وجعل فيه قلباً ونفساً، ثم جعل للقلوب[2] محلاً في عظمته، حتى تسير القلوب إلى ذلك المحل، فيكون مقامها هناك حتى إذا صار القلب إلى أن يستعمل جوارحه استعملها بذكره، معظماً لشأنه، حافظاً لحدوده في جميع حركات جوارحه، مؤتمراً بأمره، متناهياً عن نهيه وإن دق، مراعياً لتدبيره، راضياً بحكمه، وذلك كله لقوة ما يلاحظه من عظمته وجلاله بين يديه، فيخشاه ويتقيه، ويخافه ويرجوه، ويستحي منه ويهابه ويعظمه، وخلق بباب النار هذه الأفراح والزينة من النار، وحفت النار بها، ثم خلق الهوى وأصله من الشيطان، فمر بهذه الأفراح إلى نفس هذا الآدمي، حتى تستعمل هذه الأشياء الملائمة لها، اللينة في ذاتها، الناعمة لجسدها، بذلك الفرح[3]، فابتلى عباده بهذين الفرحين، فرح هناك بين يدي عظمته ومحله القلوب، وفرح هاهنا يورده الهوى، فيزيله الهوى عن ذلك الوله الذي في ذلك المحل، فيرده من هناك إلى ما هاهنا، فمن التفت عن ذلك الوله إلى هذا الوله، حجب عن الله عز وجل، ونفى عن الوله، ورجع قلبه لما رجعت

---

(1) زيادة من ب.

(2) في أ: "للطرب"

(3) زيادة من ب.

النفس إلى هذا الوله الذي أولهه الهوى، فخاب وخسر، وكذلك[1] حذر الله عز وجل عباده فقال: "يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله[2]"؛ ثم قال: "ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون". فلم يعب المال والولد، وإنما عاب الوله بالمال والولد، لأن الفرح والوله بالمال والولد يلهيه عن ذكر الله عز وجل، إذا لم يكن فيه فرح بفضل الله ورحمته؛ ودعاه الهوى إلى أن يفرح بالمال، لزينة الدنيا وبهجتها ولذتها، وبالفرح بالولد، ليلعب به ويلهو، ويتزين به، ويستظهر به ويعتضد، فصار المال والولد فتنة لحبه إياهما، فلم يحب المال من أجل أنه عون له على طاعة الله عز وجل، ولم يحب الولد من أجل أنه غصن من شجرته، خرج ليعبد مولاه، فيكون له جاهاً عند الله عز وجل بما يعبده ولده، ولكنه أحبهما للتكاثر والتفاخر والتعاضد، تزينا بهما عند أهل الدنيا، كما قال الله عز وجل في تنزيله: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا". ثم قال عز وجل: "والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً[3]". فمن أحبهما للزينة وفرح بهما، كان فرحه للدنيا، وكان وله قلبه إلى الهوى لا إلى عز وجل، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما تحت أديم السماء إنه يعبد من دون الله عز وجل، أبغض إلى الله عز وجل من الهوى". وقال عز وجل: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه[4]". فلما اتبعوا الشهوات، ولم يروضوا نفوسهم، انقطعت القلوب

---

[1] في أ: ولذلك.

[2] سورة ٦٣ آية ٩.

[3] سورة ١٨ آية ٤٦.

[4] سورة ٤٥ آية ٢٣.

عن محل الألوهية إلى الهوى، ففرحت بما أورد الهوى عليها من دنياه، فضاعت الحدود، وذهبت العبودية، وخانوا الأمانة، فماتت قلوبهم عن الحياة بالحي القيوم. وروى عن مالك بن دينار رحمه الله قال: مكتوب في بعض الكتب: "إن سرك أن تحيا وتبلغ علم اليقين، فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله". فهذه شهوات الدنيا إذا كانت مع الهوى.

فأما إذا تناولها وكان وله قلبه بين يدي الله تعالى في ملك العظمة، كان على سبيل نبي الله تعالى سليمان عليه السلام، ملك الدنيا شرقها وغربها وقلبه أخشع القلوب لله عز وجل، فلم يضره، فقال تعالى: "هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب[١]". ثم قال تعالى: "وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب[٢]". فإنما ارتفع الحساب عنه، لأنه تناولها وكان وله قلبه إلى الله عز وجل، فقد كشفنا عن هذا الأمر بأن قلنا: إن قلب العبد موقوف بين يدي الوله إلى محل العظمة، وبين الوله إلى الهوى، إلى محل باب النار؛ ففي العظمة أفراح وزينة، وبباب النار أفراح وزينة، فتلك الأفراح بالقلب، وهذه الأفراح التي بباب النار في النفس، هو الهوى، وهو ريح من نفس النار[٣]؛ والذي يورد هذه الأفراح على القلب، هو نور المعرفة ونور العقل، حتى يشخصا ببصر قلبك إلى نور العظمة، فيرجع عليك مع الأفراح؛ فالعباد موقوفون بين هاتين الحالتين، فالإنسان منذ

---

[١] سورة ٣٨ آية ٣٩.

[٢] سورة ٣٨ آية ٤٠.

[٣] زيادة في ب.

سقط من بطن أمه غذى بالشهوات، وكلما نشأ نشأ معه فرح، وذلك فرح وجود اللذة والنعمة، وفرح الحياة بما فيها من الزينة والبهجة؛ فلما شب وعقل قامت عليه الحجة، فاقتضى الوفاء بالإسلام، وهو الأمر والنهي، فأراده قلباً، فاستعصت عليه النفس، فاحتاج إلى مجاهدتها، حتى يقيم أمر الله عز وجل، ويفي بالإسلام الذي قبله، وسيسعد[١] غداً بجنته وجواره، لأنه دعاه دعوة إلى الله عز وجل حين قال تعالى: "ففروا إلى الله"، ودعاه إلى دار السلام حين قال: "والله يدعو إلى دار السلام"، فصار أهل المجاهدة فرقتين: فرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض، وسارت إلى الله عز وجل قلباً، فلم تعرج[٢] على شيء حتى وصلت إلى الله عز وجل، وفرقة حفظت الجوارح، وأدت الفرائض بجهد وتعب، في كد[٣] محافظة وحراسة، ومع ذلك تخليط وتهافت في الخطايا، وأدناس لا يستطيع أن يسلم منها، بمنزلة راع أعطى سبعة أغنام، ليرعاها في سبعة أودية، في تلك الأودية سموم قاتلة، وجرف هارية، وسباع ضاربة، فهو قائم على أكمة مراقباً لتلك الأغنام، فإن رعت[٤] سما بادرها بالبازهر والسمن واللبن، حتى يردها إلى العافية؛ وإن تردت في جرف فتكسرت، عمد إلى ما تكسر منها، فجبرها حتى تجبر؛ وإن عرضت لها السباع ذاد عنها وطردها، وما وجدها فريسة استلبها من مخالبها وأنيابها، فداواها

---

[١] في أ: وسنعدا. وفي ب: وسعد.

[٢] في أ: تفرج.

[٣] في أ: وكد

[٤] في أ: رتعت.

حتى تبرأ؛ فوكل العبد بجوارحه السبع ليحفظها، حتى لا تتعدى[١] الحدود، فإنه إذا تعدى الحدود، وعصى الله عز وجل، وخان الأمانة، وظلم نفسه، وسقطت منزلته، فبعد عن الله عز وجل، فإذا بعد عنه تباعد عن الرحمة، وصار مرفوضاً مخذولاً، فأسره العدو، وذهب به إلى النار، لأنه إذا أسره العدو ذهبت قوة القلب، واستولت النفس، فمرت في كل شهوة جزافاً، فلم تبال حلالاً ولا حراماً، فهلكت. فهذا شأن العبد في حفظ الجوارح، قال الله تعالى: "والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون"، ثم قال الله عز وجل: "أولئك في جنات مكرمون[٢]".

حدثنا صالح بن عبدالله، حدثنا جرير، عن ليث، عن ابن أبي نجيح، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه، قال: أول ما خلق الله من الإنسان فرجه، فقال له: هذه أمانة خبأتها عندك، فلا ترسل منها شيئاً إلا بحقها، فالفرج أمانة، والبصر أمانة، والسمع أمانة، واللسان أمانة، واليد أمانة، والرجل أمانة، والبطن أمانة، فإنما بدأ بالفرج، لأن جميع الأفراح تجتمع عند استعماله، وهو أقوى اللذات، وبه دخل النار أهله؛ وقيل: يا رسول الله، ما يدخل الناس النار؟ قال: الأجوفان: البطن والفرج، وإنما خبأه عند عبده، يعني آدم عليه السلام، لأنه بدء الفرح[٣]، وهو سر الله عز وجل، مقرون بسر القدر، لا ينكشف إلا لأهل الجنة فيها، فأمر بسر العودة لذلك، لأنه خلق مستور، خبأه الله عز وجل عندنا، وأمرنا بحفظه،

---

(١) في أ: من أن يتعدى.

(٢) سورة ٧٠ آية ٣٥.

(٣) في أ: به والفرج.

وسماه سوءة، فحرص العدو على أن يهتك ذلك الستر، حتى يبدو لنا، وقبل ذلك كان مستوراً عن آدم وحواء عليهما السلام، وإنما بدا بالمعصية، قال الله عز وجل: "ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوآتهما[١]".

فإنما صير كل جارحة من هذه السبع أمانة عندنا، لأن كل جارحة ذات شهوة، ومجمع الشهوات في النفس، فإذا استعمل هذه الشهوات بإذن الله تعالى، وبلغ بها الحد الذي حده له، فهو مطلق له؛ وإذا تعدى إلى المحظور صار ملوماً، قال الله عز وجل: "قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم[٢]". ثم أثنى عليهم فقال: "والذين هم لفروجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم، فإنهم غير ملومين[٣]". فأزال الملامة عن استعماله في نكاح أو ملك يمين؛ ثم قال عز وجل: "فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون[٤]". فذم من جاوز الحد، وكذلك في كل جارحة على هذه الصفة. فالراعي يحفظ هذه الأغنام حتى يصلح ما فسد منها، على ما وصفنا، فكذلك[٥] الذي وقف بمجاهدته على نفسه، يحفظ جوارحه على الحدود، في النظر، والكلام، والاستماع، والأخذ، والعطاء، والبطن، والفرج؛ فإذا غلب أو زل أو نسى أو غفل، عاد إلى مركز الطاعة بين يدي الله عز وجل بالاستغفار والتوبة؛ فهذا عبد في جهد الاستقامة، وباطنه غير مستقيم، لأن شهوات نفسه

---

[١] سورة ٧ آية ٢٧.

[٢] سورة ٢٤ آية ٣٠.

[٣] سورة ٢٣ آية ٥

[٤] سورة ٢٣ آية ٧.

[٥] في ب: فذلك

قائمة بين يديه، فهو يمنعها بجهد، ومتى ماغفل عنها زل وسقط؛ فطريق هذا العبد إلى دار السلام، ليس له وراء هذا مسلك. وأما الذي راض نفسه وأدبها، ومنعها اللذات والشهوات، حتى طهر قلبه، واستوجب القربة بطهارة قلبه، وآثر الفرح بالله على الفرح بما أورده الهوى على نفسه من أفراح الدنيا، فتح الله عز وجل له طريقاً إليه، فسار سيراً لم يلتفت إلى دار السلام، لأنه لما أخذ في الرياضة أخذه بصدق، فلم يقف في الطريق على شيء مفروح به، ولو كان أسنى عمل من الأعمال[1]، لأنه إذا توقى الفرح بلذات الدنيا وشهواتها، أمد القلب بالنور، وهان عليه رفض الشهوات، حتى إذا انكمش في أعمال البر، فرح القلب بتلك الأعمال، فينبغي له أن يتوقى تلك الأفراح أيضاً، وينتقل من عمل إلى عمل، ليقطع عن النفس فرحها بذلك العمل، لأنها إذا فرحت بعمل من أعمال البر، اطمأنت إلى ذلك العمل، فإذا اطمأنت[2] إلى شيء دون الله عز وجل، فقد ترك سيره إليه، ووقف على ذلك العمل، فاقتضى منه صدق ذلك العمل، فلم يوجد عنده صدقه، لأن النفس تأخذ بحظها من ذلك العمل، وهو أن تجد حلاوة حب الثناء والمدحة لذلك العمل، فهو وإن أخفاه وستره علمت نفسه أن الناس يحسون[3] بذلك منه، ويشعرون به، فيأنس بعلم الناس، وملاحظة أعينهم إليه، فلا يصفو له عمل، ولا يقدر أن يخلص بأكثر من هذا، فيقبل منه إذا رد الذي عرض له من ذلك

---

(1) في أ: من أعمال البر.

(2) في أ: اطمأن

(3) في أ: يخينون

قبول الصادقين، لا قبول الصديقين.

فينبغي للمبتدئ في هذا الأمر أن يبدأ بالصوم، فيصوم شهرين متتابعين، توبة من الله عز وجل، وعد الله عز وجل في تنزيله أن شهرين متتابعين توبة من الله عز وجل لعبده إذا تابعهما، ثم ينتقل من الصوم إلى الإفطار، فيطعم اليسير من الشيء يتجزأ به، فإن كان في اليوم مراراً كسرة كسرة، فهو أجود له من أن يملأ بطنه، فيصيرها أكلة، وإنما ذلك محمود عند الأطباء، فتقول أكلة واحدة كي يستمر بها، وذلك لا يدخل في هذا الباب، لأن صاحب هذا لا يأكل حتى يتخم، إنما نشير عليه بأن يأكل كسرة كسرة قوتاً، فيداري نفسه على ذلك وبين الأيام دسماً قليلاً، لئلا تهيج عليه الرياح، وتضطرب العروق، ويقطع الإدام والفواكه عن نفسه. وكذلك في الكسوة، يجتزئ بالدون وما لا بد منه. وكذلك في سائر الأحوال التي للنفس فيها حظ من الفرح واللذة يقطعها عن نفسه، ومجالسة الإخوان، وللنظر في الكتب، فهذا كله[1] أفراح النفس وجماعها[2].

وفي الجملة ينبغي أن يتفقد كل حال وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار، من نعمة أو وجود لذة أو أنس بشيء، فيقطعه عنها، وأنه كلما هويت النفس شيئاً أعطاها فرحت به، فينبغي له أن يمنعها ولو شربة من ماء بارد تريد أن تشربها، فيمنعها في تلك الفورة التي تشوفت لوجود بردها ولذتها، حتى تسكن تلك الفورة، وينغص عليها، ثم يسقيها بعد

---

(١) في أ: فهذه كلها.

(٢) في أ وب: وجعامتها.

ذلك حتى يملأها غماً، ويوقرها هماً، لأن من شأنها إذا حبس عنها هذه الأفراح بهذه الأشياء وبهذه الأحوال، فكأنه يصيرها في سجن، فيتقرب إلى الله عز وجل بغمها وهمها، فيعجل الله عز وجل له ثوابه نوراً على القلب، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها، وعلى أخذ سلطانها؛ ويستولى عليها وهي تذل وتذبل، والعدو يخسأ ويتحير، ويبطل كيده ومكره؛ حتى إذا انتهى إلى أعمال البر، فكل عمل يراها تفرح به أو تأنس به، يقطع عنها ذلك العمل، حتى إنه لو قرأ القرآن فرجع فيه وغنى، منعها ذلك، لأنها متى وجدت شيئاً مفروحاً به، أنست واطمأنت إليه، ومدت القلب إلى ذلك الأنس، فمتى يصل القلب إلى الأنس بالله عز وجل، والطمأنينة إليه، والوله إلى عظمته، وصفاء الحب له، فهذا صدق المريدين ربهم عز وجل، والسائرين بالصدق إليه، والطالبين له في منازل القربة.

فينبغي أن يتفي كل فرح للنفس فيه نصيب، حتى يصل إلى ربه تعالى، فإذا وصل إلى ربه عز وجل امتلأ قلبه به فرحاً وسروراً ويقيناً، فكل شيء مد إليه يداً من دنيا أو آخره لم يضره، لأنه منه يقبل، فإذا قبل منه حمده عليه وشكره، وكانت جوارحه مستقيمة، حافظة للحدود، معتصمة بخوف الله عز وجل، ولسانه ذاكراً، وبدنه شاكر صابر، لأنه امتلأ قلبه بالله تعالى فرحاً، فلم تجد أفراح الدنيا فيه مكاناً، فإذا فرح بشيء من الدنيا، فإنما يفرح ببر الله تعالى له بذلك وتقديره وتدبيره ولطفه، ولا يخون أمانته، ولا يكفر نعمه، ولا ينسى ذكره، ولا يحدث عيباً، فاستعمال جوارحه في ذلك الشيء بمنزلة رجل شرب ترياقاً، فامتلأت عروقه منه،

فإن مد يده إلى حية أو عقرب لم يضره سمهما، لأنه لم يجد السم مسلكاً إلى عروقه، فإذا لم يجد الترياق وجد السم مسلكاً إلى العروق، فجمد الدم الذي في العروق من ذلك السم فمات؛ فكذلك أفراح الدنيا تجري في العروق مجرى الدم، فتشمل الجوارح كلها، فتأخذ القلب فتسبيه، فإذا دخلت الأنوار القلب بما راض نفسه بهذه الرياضة التي ذكرنا؛ عجل له ثواب رياضته، فانشرح الصدر وانفسح، فصارت الآخرة له كالمعاينة، ولاحظ الملكوت بتلك العين عين الفؤاد، في فسحة ذلك النور المشرق في الصدر، فرأى شأناً عجيباً من عظمة الله عز وجل وجلاله، ورأى من لطف الله عز وجل ؟؟؟ وإحسانه إليهم، ومننه[١] عليهم، فامتلأ القلب به فرحاً، وجرت الأفراح في العروق، حتى امتلأت فمتى تجد بعد ذلك أفراح الدنيا مسلكاً إلى عروقه، حتى يكون لذلك الفرح سلطان يأخذ القلب فيسبيه، فعندها يمد يده إلى ما أحل له من الطعام والشراب واللباس والنكاح، والاحتواء إلى ما قدر له من دنياه، فيقبله من ربه عز وجل على تدبيره الذي دبر له، فإن أخذ أخذ بحق، وإن أمسك أمسك بحق، وإن أعطى أعطى بحق، وقلبه حر من رق النفس وفتنته، ذلك الشيء[٢] وذلك العمل بمنزلة رجل له ملء بيت دنانير يملكها، وإن أعطاه رجل صرة فيها عشرة دنانير، لم يعمل في قلبه فرح تلك العطية عملاً يؤثر أثراً، ولا يستبين، وإن كان عنده تلك الصرة، فسقطت منه حتى تويت، لم يبد عليه ضرر ذلك، ولا عمل على قلبه

---

[١] في أ: ومنته.

[٢] في أ: السوء

حزن ذلك، ولا هو فرح بما أصاب، ولا حزن على ما توى وذهب، لامتلاء قلبه بفرح تلك الدنانير، التي هي ملء بيت؛ فكذلك من فرح قلبه بالله عز وجل، استغنى بالله عز وجل، فلا تملك قلبه بعد ذلك أفراح الدنيا، لأنه لا يستغنى بالدنيا، إنما اغناه بالله تعالى؛ وهذا تأويل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس". فالنفس إذا استغنت، فغناها بغنى القلب المشرق نوره في صدره، فإذا أطمأنت النفس بما أشرق فيها من النور بالله عز وجل، أشرق النور فيه[1] إلى الله عز وجل، فقد رق عندها نوال الدنيا من أولها إلى آخرها، في جنب ما عاين القلب، وأورد من حياة على النفس؛ فهذا شأن النفس إذا وصلت إلى ربها عز وجل بوصول القلب، فإنما قلنا إنه لا يدع لنفسه قراراً على شيء من أعمال البر، فكلما فرحت النفس بشيء من الدنيا، أو بعمل من أعمال البر، قطع عنها ذلك الفرح حتى يغمها، حتى يطهر القلب من أفراح النفس، فهناك يرحم، لأنه إذا وصل إلى هذه المرتبة، بقي بلا أنس ولا فرح، قد قطع عن نفسه أفراح الدين والدنيا، فهو يحفظ جوارحه عن كل ما نهى الله عز وجل، وعن كل شيء من الفضول، فيقيم الفرائض والسنن، لا يزيد عليها، كفى بهذا شغلاً، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أد ما افترض الله عليك، تكن من أعبد الناس؛ واجتنب محارم الله عز وجل، تكن من أورع الناس؛ وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً". فهذا المؤمن المستكمل

---

[1] زيادة في ب

المستحق[1] لاسم الإيمان عند إقامة هذه الخصال الثلاث، فكفى بهذا شغلاً، فهذا عبد صدق الله عز وجل في العبودية. وأما سائر الناس من غير أهل هذه الصفة، فهم متخبطون[2] بطالون، يعبدون الله عز وجل على الشايد بود[3]، قد طابت أنفسهم ولذات أهوائهم.

وروى أن داود عليه السلام قال: يارب، أمرتني أن أطهر بدني بالصوم والصلاة، فبم أطهر قلبي؟ قال: بالهموم والغموم ياداود، فإنما تدنس[4] القلب بالأفراح، أفراح النفس، فلا يطهر بمثل[5] عمر نوح عليه السلام صوماً وصلاة، وإنما يطهر الصوم والصلاة أدناس الأركان بالمعصية، وإنما يطهر القلب ما يزيل عنه أدناس الفرح، وهو الهموم والعموم، فلما منعت النفس شهواتها ذبلت، وطفئ تلظى شهواتها، وفوران دخان هواها، فزالت أدناس الفرح من القلب، بذهاب الفرح، وطهر بالأنوار التي وجلت القلب، بمنزلة سحائب تحجبك بظلمتها، وبما فيها من الغبرة عن الشمس، فلما انقشعت السحائب وتبددت، أشرقت الشمس، فعندها يصلح لقرب الله عز وجل، قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة"[6]. فالوسيلة والوصيلة بمعنى واحد، إلا أن الوصيلة أن يوصل الشيء بالشيء، فلما صار الأمر إلى ذكر الله

---

[1] زيادة من أ

[2] في ب: محبطون

[3] بالفارسية، ومعناه "يمكن أن يكون"

[4] في أ: يندنس

[5] في أ: "يطهره مثل".

[6] سورة ٥: آية ٣٥.

عز وجل، أخرجوه مخرج القربة، فقيل وسيلة، بدل بالسين صاداً، وبالصاد سيناً، فيكون له من الألفاظ أشرفها وأعلاها وأنزهها، فأمرهم بابتغاء الوسيلة إليه بالتقوى؛ فجماع التقوى ههنا[١] هو ما وصفنا، إلى أن يتقي الفرح في كل شيء، تجد النفس في ذلك الشيء فرحاً: من كلام، أو صيام، أو قيام، أو قعود، أو ذهاب، أو مشي، أو لباس، أو طعام، أو شراب، أو صاحب، أو أهل، أو ولد، إلا فيما[٢] لابد منه كالمضطر، فإذا فعله على تلك الهيئة، فعله مع الاهتمام والاغتمام، أو مع الحزن، لأنك تجد ذلك الفعل لله عز وجل خالصاً، لا تأخذ النفس من ذلك الفعل لله[٣] حصتها، فأنت تفعل ذلك الذي لابد منه، فتكسر عليها فرحها ونشاطها لذلك التخليط، الذي ترك في أمرك من قبلها، حتى يدوم عليها الغم والهم. فجهاد الصديقين في هذا أن يلقوا[٤] الفرح بشيء سواه، حتى أوصلهم إلى نفسه، بعد أن امتلأت صدورهم غموماً وهموماً، فلما أوصلهم قربهم، ومكن لهم بين يديه، وملأهم فرحاً، فاشتاقوا إليه، فقربهم، فازدادوا شوقاً كلما زاد قربهم[٥] اشتد شوقهم فازدادوا حتى عطشت قلوبهم، وامتلأت قلوبهم أحزاناً، حتى قطعوا الحياة والعمر بالأحزان. وروى في الخبر، قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) زيادة في أ

(٢) في ب: "ما".

(٣) زيادة في أ

(٤) في أ: "تلقوا"؛ وفي ب "يقوي"

(٥) في أ: "زادهم قربة".

دائم الأحزان والفكر"[1]. وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما عبد الله عز وجل بمثل طول الحزن" وحق لمثل هذا أن يحزن، فإنه وصل بقلبه إلى رب ماجد كريم، فرأى عظمة وجلالة، وعطفاً وبراً، ونال منه حباً، فلم يشف الوصول إليه بتلك القربة وذلك الفرح به، دون رؤيته في الجنة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المؤمن من أمن الناس بوائقه، والورع سيد العمل، من لم يكن له ورع يرده عن معصية الله عز وجل إذا خلا بها، لم يعبأ الله بسائر عمله شيئاً". فذلك مخافة الله عز وجل في السر والعلانية، والاقتصاد في الفقر والغنى، والصدق عند الرضا والسخط؛ إلا أن المؤمن حاكم على نفسه، يرضى للناس ما يرضى لنفسه؛ والمؤمن حسن الخلق، وأحب الخلق إلى الله عز وجل أحسنهم خلقاً، وينال بحسن خلقه درجة الصائم القائم وهو راقد على فراشه، لأنه قد رفع لقلبه علم، فهو يشهد مشاهد القيامة بقلبه، يعد نفسه ضيفاً في بيته، وروحه عارية في بدنه، ليس بالمؤمن حقاً من لم يكن حملانه على نفسه، الناس منه في عفاء، وهو من نفسه في عناء، رحيم في طاعة الله عز وجل، بخيل على دينه، حيي مطواع، وأول ما فات ابن[2] آدم من دينه الحياء، خاشع القلب لله عز وجل، متواضع قد برئ من الكبر، قائم على قدميه، ينظر إلى الليل والنهار يعلم أنهما في هدم عمره، لا يركن إلى الدنيا ركون الجاهل، قال رسول الله صلى الله

---

[1] في أ: "والكدر".

[2] في أ: "فات أن"، وفي ب: "فار بني"

عليه وسلم: لا جرم[١] أنه إذا خلف الدنيا خلف الهموم والأحزان، ولا حزن على المؤمن بعد الموت، بل فرحه وسروره مقيم بعد الموت. حدثنا عبدالجبار بن العلاء بن[٢] يوسف بن عطية، قال: سمعت ثابتاً البناني رحمه الله تعالى يذكر عن أنس رضي الله عنه، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذ استقبله رجل شاب من الأنصار، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله عز وجل حقاً[٣]. قال: انظر ما تقول، فإن لكل قول حقيقته، قال: يا رسول الله، عزفت[٤] نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، فكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وإلى أهل النار كيف يتعاوون فيها. قال: أبصرت فالزم. عبد نور الله الإيمان في قلبه، فقال يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة؛ فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنودي يوماً في الخيل[٥]، فكان أول فارس استشهد، وأول فارس ركب، فبلغ أمه فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، أخبرني عن ابني إن يك في الجنة لم أبك عليه، ولم أحزن، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت في الدنيا. فقال: يا أم الحارث، إنها ليست جنة، ولكنها جنان، والحارث في

---

(١) هكذا في الأصل

(٢) لعله: عن. فإن عبدالجبار بن العلاء بن عبدالجبار الأنصاري هذا راو، ويوسف بن عطية راو آخر (انظر خلاصة تذهيب تهذيب الكمال، في أسماء الرجال للخزرجي). ويؤيده قوله في صفحة ٧٠: "بمثل حديث يوسف".

(٣) زيادة في أ

(٤) في ب: "عريت".

(٥) في أ: "الجبل".

الفردوس الأعلى. فرجعت وهي تضحك وتقول: بخ بخ لك يا حارثة.

قال أبو عبدالله رحمه الله تعالى: فإنما وصل العبد لله هذه المنزلة بتلك الأنوار، ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هذا عبد نور الله عز وجل الإيمان في قلبه".

حدثنا أبي حدثنا محمد بن الحسن المكي، عن عبدالعزيز بن أبي رواد، يرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، بمثل حديث يوسف، إلا أنه قال: "لكأني أنظر إلى ربي عز وجل فوق عرشه، يقضي بين خلقه". فقد أعلم أن الإيمان في القلب، ولا يستنير في الصدر، لإحاطة غيوم الشهوات، ورين الذنوب بالقلب في الصدر. حتى إذا تاب العبد صقل قلبه بالتوبة، فإذا جاهدها وراضها حتى ينقطع دخان شهواتها، وفوران الهوى، جاءت الأنوار مدداً للإيمان الذي في القلب، فصار القلب ذا شعاع وإشراق في الصدر. فإذا أشرق في صدره[1]، فذلك عبد نور الله عز وجل الإيمان في قلبه، فلما نوره استنار في صدره، فصدرت الأمور إلى الجوارح من ذلك النور، مع الخوف والخشية والحياء، فعملت الجوارح على الحدود والمقدار الذي أمر، مع البهاء والزينة.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا أذنب ذنباً نكت[2] في قلبه نكتة سوداء، فإذا عاد نكت أخرى، فلا يزال ينكت حتى يسود القلب كله، فإذا تاب ونزع صقل قلبه". فإنما ينصقل بالأنوار

---

[1] زيادة في ب.

[2] في أ: "نكتن".

حتى يتجلى كالمرآه المجلية، فإذا صار كالمرآه تراءت[1] له الدنيا على هيئتها، والآخرة على هيئتها والملكوت، فإذا لاحظ في الملكوت عظمة الله عز وجل جلاله، صارت الأنوار كلها نوراً واحداً، فامتلأ الصدر شعاعاً، بمنزلة رجل نظر في المرآة، فأبصر صورة نفسه فيها، وأبصر ما بين يديه وما خلفه فيها، فإذا قابل بها عين الشمس، وقع الشعاع في البيت، فأشرق البيت من تقابل النورين: نور عين الشمس، ونور المرآة[2]؛ فكذلك القلب إذا جلى فانجلى، فلاحظ العظمة والجلال، تجلت العظمة بين الحجاب[3] لذلك القلب المجلي، لأنه طاهر من أدناس المعاصي، وأدناس الشهوات، وأدناس الهوى، والتقى النوران فامتلأ القلب شعاعاً، فهناك تموت النفس ويخشع القلب.

حدثنا سفيان بن وكيع، وقتيبة بن سعيد، قالا: حدثنا عبدالوهاب الثقفي، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. "إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنه إذا تجلى الله عز وجل لشيء من خلقه خشع له؛ ولذلك لما تجلى لطور سيناء، صارت البقعة التي وقع التجلي عليها كالهباء المبثوث، وما في جوارها ساخت في الأرض، فهي تذهب في تلك البحار التي من وراء الدنيا، إلى يوم القيامة، فلا تستقر، وما في جوارها أبعد منها، صارت ثماني فلق، فطارت هرباً وفرقاً، حتى

---

(1) في ب: بدأت. وفي أ: ترأت.

(2) زاد هنا في أ: "من الحجاب"

(3) زيادة من ب

وقعت أربعة منها في حرم الله عز وجل، وأربعة في حرم الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وخر موسى عليه الصلاة والسلام صعقاً، فصارت الأرض كلها ذات بهجة وزينة، حتى ظهرت الكنوز على ظهر الأرض، وأبصرت العميان، وصح كل مريض، وبرئ كل زمين، وانفتحت الأرحام، فحملت كل عقيم، وحلى كل أجاج".

فأعلم في هذا الحديث أن الشمس إنما ذهب ضوءها خشعة[1] لله عز وجل، وخشوعها خروجها من سربالها التي[2] سربلت به من نور العرش، فتهافت الضوء؛ فكذلك النفس إذا أحست بالتجلي خشعت له عز وجل، وخرجت من جميع شهواتها إلى الله عز وجل، وتهافتت أفراحها، وطرآت الشرور، فصارت ذبلة كالميتة، فتخلص القلب من ذلك، وتخلص من أدناسها، فوجد السبيل إلى الله عز وجل، بما فيه من المعرفة والعقل، فقرب[3] ثم قرب، ثم زيد نوراً، حتى مكن له بين يديه، فهو يعبده كأنه يراه، وهو قول جبريل عليه السلام. "ما الأحسان؟ قال. أن تعبد الله عز وجل كأنك تراه". فحسن العبادة مع الترائي، فإذا كان محجوباً فإنه يعبد الله ولا يلتمس الحسن والزينة في العبادة، بمنزلة رجل دعاه الملك ليقطع ثوباً بين يديه ويخيطه، فلا يترك هذا الصانع من خفة

---

[1] في ب: "خشعت".

[2] كذا في الأصل والصواب: الذي.

[3] في ب: "قرب".

اليد، وحسن الابتداء، ووجازة الفعل[1]، وإحكام الخياطة وزينتها، إلا صنعه بين يديه، ويريد أن يتجلى بذلك عنده، فيكتسب به جاهاً عنده ومنزلة؛ والآخر رجل دعاه الملك، وقال: اذهب بهذا الثوب فاقطعه وخطه قميصاً، واحمله إلي، حتى أنظر إليه، فلما غاب عنه ترك خفة اليد، وحسن الابتداء، ووجازة الفعل[2]، وإحكام الخياطة، وأتقنه وزينه، لأنه ذاكر العرض عليه؛ والآخر دعاه الملك، فقال: اذهب بهذا الثوب فاقطعه وخطه، وأنفذه إلى فلان الراعي، فلما غاب عنه رفع عنه باله، فكيف قطعه وخاطه جوزه، لأنه لم يشعر برؤية الملك، ولا ذكر العرض عليه، وإن ما به ارتفاع العمل، فيقول: قد عملت، وأخذ الأجرة؛ وإنما جرأه على ذلك غفلته عن رؤية الملك، وعن العرض عليه.

فعمال الله عز وجل ثلاثة أصناف، عامل يعمل على الترائي، فلا يترك زينة، ولا مبادرة، ولا سرعة، ولا خفة يد، ولا طهارة، ولا تعظيماً، ولا وجازة، ولا مسابقة إلا جاء بها، يريد أن يتحلى بذلك عند مولاه عز وجل، وعامل ليس له هذا الترائي، وهو محجوب القلب عنه بالشهوات، صادق في ابتغاء مرضاته، ذاكر للعرض عليه، فلا يتزين، ولا يبادر، ولا يعظم، ولا يسارع، ولا يوجز، ولا يسابق، ولكنه يعمل على الأحكام وحفظ الحدود، وإتمام الأمر بالأركان. وعامل لا يذكر رؤية ربه عز وجل

---

[1] في أ: "العقل".

[2] في أ: "العقل".

أنه ناظر إليه في هذا العمل، ولا هو ذاكر لعرض الأعمال[١] يوم القيامة، فهو يعمل على الغفلة على التجويز، فإنما يعمل كل صنف منهم على نوره الذي في صدره.

فجملة ما وصفنا من أمر السير إلى الله تعالى أن يتقي فرح النفس، أن يتركها حتى تفرح بشيء من أحوالها، أو بتناولها من الدنيا وأعمال البر، كلما ظهر فرحها نغص عليها بالمنع لها، والانتقال عنه حتى يملأها غماً، فيذوب الفرح الذي يتأدى إلى القلب، ويظهر النور، ويظهر في ذلك النور الفرح بالله عز وجل، لأن ذاك النور يؤديه إلى صفات الله عز وجل، وإلى عظمته وجلاله، وجماله وكبريائه، وبهائه وسؤدده، وكرمه وجوده، وبره ولطفه، ومننه وإحسانه ورحمته؛ فمحال أن يعتقد القلب هذا الفرح حتى يدوم له ذلك، وتزول عنه أفراح النفس، ثم يصير في فرحه بالله عز وجل حزيناً، لأنه محبوس عنه برمق الحياة في دار الدنيا، مشتاق إلى ربه عز وجل، قد أنس به، واشتاق إلى لقائه، واستوحش من الدنيا وأهلها، وهمته ذكر الله[٢]، وعبودية شهوته، وموته راحته ويوم عيده.

وتحقيق ما وصفنا من ضرر[٣] فرح النفس، أن الله عز وجل حرم المعازف والخمر على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، وما نطق به الوحي في شأن الخمر، وذلك أن الله عز وجل لما خلق الفرح، وجعل[٤] له باباً،

---

[١] في ب: "العرض لأعمال".
[٢] في أ: "فنعيمه رؤى الله".
[٣] في ب: "صور.
[٤] في الأصل: جعل

فلما خلق الجنة، خرجت الأغراس من باب الرحمة، وخرج غرس من العنب من باب الفرح، فلذلك أول ما أكل آدم صلى الله عليه وسلم حين دخلها العنب، فامتلأ فرحاً.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل: "ما أول ما يأكل أهل الجنة من الجنة؟ قال: العنب": وأول ما أكل آدم العنب، فامتلأ فرحاً، ووضع من الفرح في تلك النار التي فيها الزينة بباب النار التي سميت شهوات، فجعل ذلك الفرح حظ إبليس، حتى يأخذه فيضعه في الأشياء التي يغوي الآدميين بها، فلما أضل أبليس المشركين بذلك الفرح، دخل الأشجار وكل معبود من دون الله عز وجل، فصوت منها بذلك الفرح، فكل من يتبع[1] صوته، سبى ذلك الفرح قلبه، حتى يجيبه إلى الشرك وإلى عبادته، فهوى يرى أنه يعبد الشجرة والوثن، وإنما يعبد الطاغوت، وأبليس طغى حتى بلغ غاية الطغيان، فقيل طاغوت، وذلك قول الله عز وجل: "كل حزب بما لديهم فرحون[2]". فذلك الفرح لكل حزب من الذي أعطى أبليس، حتى أورده على قلوبهم بصوته، وذلك قوله عز وجل: "واستفزز من استطعت منهم بصوتك[3]". وصوته مع ذلك الفرح، ولولا ذلك ما أجابوه، فهم فرحون بأديانهم، وإنما فرحون بالله عز وجل، ولكن غير مقبول منهم، وهم يحسبون أنهم مهتدون بذلك الفرح، لأنهم تناولوه من أبليس، لا من هداية الله عز وجل ومعرفته، وإنما وصل

---

[1] في أ: "سمع".

[2] سورة ٢٣ آية ٥٣

[3] سورة ١٧ آية "٦٤"

إلى غواية آدم صلى الله عليه وسلم، بما استفرحوا بصوته من الفرح.

روى في الخبر أنه لما دخل الجنة صوت من مزمار له[١]، حتى كادت حواء تطير من الفرح، فقالت ما هذا الصوت؟ قال: لسروري[٢] بمكانكما، ثم قلب المزمار، فناح نياحة أخذ بقلبها، حتى امتلأت حواء خوفاً، فقالت: ما هذا الصوت؟ فقال حزناً عليكما أن تموتا أو تخرجا منها. فهناك دلهما على شجرة الخلد، لكي يأكلا منها، فيخلدا فيها. ففي وقت الفرح دلهما على شجرة الخلد، ولتخويف الزوال دلاهما بغرور، حتى ذاقا الشجرة، فلماهما صارا محجوبين بالهم، فلما ذاقا عريا من اللباس، وانكشف الغطاء عن الذنب، فوليا[٣] في الجنة هاربين، فبالفرح، خلص[٤] العدو إليه، حتى أكل من الشجرة، فصرعه. وحرم الله عز وجل الخمر لما فيها من ذلك الفرح، لأن أبليس لما سرق العنب من سفينة نوح عليه الصلاة والسلام، وافتقده نوح عليه السلام، جاءت الملائكة، حتى يقضي جبريل عليه السلام[٥] بينه وبين نبي الله صلى الله عليه وسلم على الثلث والثلثين، فكل ما وجده نياً أو مطبوخاً فيه بقية من حظه لم تأكله النار، خاض فيه يديه بفرحه الذي أعطى، حتى يتحول ذلك الفرح من يده إلى ذلك الشراب، وإنما يزبد ويغلي بحرارة يده الملعونة، لأنه خلق من النار، فإذا شربه الشارب، وقد تحول ذلك الفرح

---

[١] زاد في أ: "فرحاً".

[٢] في أ: "السرور"

[٣] في أ: "لنا".

[٤] في أ: "خلق"

[٥] زيادة من ب

من يده في ذلك الشراب، دب[1] في هذا الشارب، وانكمن العقل، لتدنس يده ورجاسته، فشاربه يحتمل مرارته[2]، وذهاب عقله، وتلف ماله، وألم جسده، والآفات التي تحل به، فإنما يحتمل ذلك كله من أجل ذلك الفرح الذي دب فيه، حتى يصده عن ذكر الله عز وجل وعن الصلاة، ووجد سبيلاً إلى أن يحرش بينهم، ويغري بعضهم ببعض، فحرمه الله عز وجل، لئلا يفرح بفرح هو حظ أبليس لعنه الله تعالى.

فكذلك أصوات المعازف والملاهي، تلك الأصوات ممزوجة بالفرح الذي بيده، فلا يلتذ المستمع إلا بما يمازجه من الفرح الذي بيد العدو، فإذا مازجه وسمع الآدمي، هاج بالفرح منه، ودب في جميع جسده، وطرب حتى وثب ورقص كالقرد، فحرم الله عز وجل هذه المعازف، للفرح الممازج من حظ العدو فيها، وأطلق هذه الأشياء التي لا غنية بالآدمي عنها، مما هو له[3] غذاء أو معاش، ثم حذره أن يلهيه ذلك الفرح حتى يأشر ويبطر، ويتعدى الحدود. فالكيس حسم باب الفرح عن نفسه. من كل حلال أو حرام، ومن جميع أعمال البر، مما يجد في النفس[4] استرواحاً إليه، وبه فرحا، حتى ملأها غماً، حتى طهر قلبه،

---

[1] في أ: در.

[2] في أ: "من لذته".

[3] زيادة من أ.

[4] في أ: "فيه لنفسه".

وتجلت فيه أنوار العزيز الماجد الكريم، على ما ذكرنا بديا[1]، وعريت الملائكة من الشهوات والجوارح والأجسام والأجواف والضرورات، فلا يحتاجون إلى طعام ولا شراب، ولا كسوة ولاكن يستكنونه من الحر والبرد، فنجت من فتن الآدميين وضروراتهم، ومكايد العدو، وأظهر خلفهم من التدبير بقوله "كن". وعاملهم من ملك الجبروت، ومقاومهم في ملك الجلال[2]، وأظهر خلقنا من يده، وعاملنا من ملك الرأفة والرحمة، ومقاومنا في ملك المحبة؛ فالملائكة مجبورون على حال واحد، لا ينفكون ولا ينقلون عنها. والآدميون خدم بين يديه عز وجل، ينقلبون من حال إلى حال، وكل أحوالهم خدمة، وإنما صار هكذا لأن المعرفة من الملائكة على الأبصار، والمعرفة من الأميين على القلوب، والقلب أمير على الجوارح، فحركات الجوارح كلها من تقلب القلب بمشيئاته، ومشيئاته بمشيئات ربه عز وجل، فأي جارحة حركها فإنما محركها قلبه، والقلب شاخص إلى الله عز وجل بولهه في تلك الحركة، فتلك خدمة منه له، مأخوذة هذه اللفظة من خدمة الساق، لأن الآدمي إذا قام منتصباً، قام على خدمة ساقه، فهو بالقلب قائم بين يدي ربه عز وجل، ومنه تتأدى الحركات إلى الجوارح، حتى تظهر على الجوارح، فقيامه ونهوضه إلى ربه عز وجل بتلك الحركة هو خدمته، وهو النية التي

---

[1] زيادة في أ.

[2] زيادة من أ

ينوي بها العبد في كل عمل، والنية[1] النهوض، يقال في اللغة. ناء ينوء، أي نهض ينهض، فالقلب يرتحل إلى الله عز وجل، حتى يصل إلى سورة المنتهى إن كان له طريق، فإن حبس في الطريق فللتهمة احتبس، ولسوء الأدب منع وانسد الطريق، فعلى أي حال كان، فقد نهض من مكانه إن وجد الطريق أو لم يجد. ويقول للجارحة التي تعمل ذلك العمل تحركي بذلك العمل في حركاتك، وأنفذي العمل على أثري، فإني واقف بالباب، أبتغي من ربي عز وجل مرضاته، بما ينفذ إليه على أثري، فهذه النية.

ثم الناس في نياتهم على درجات، على تفاوت عقولهم؛ ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما يروي عنه، قال: "يعملون الناس الخير ويعطون أجورهم على قدر عقولهم". وروي عن الله عز وجل قال: يا موسى، إنما أجزي الناس على قدر عقولهم". قال له قائل: صف لنا شيئاً منه، كيف تفاوت على قدر العقول؟ قال: مثل رجل دخل المسجد فوجد الصف الأول قد قام، فوقف في الصف الثاني، فقد سقط من درجة الصف الأول، ودرجته أنه جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول، وجاء أن الرحمة تنزل على الإمام مائة رحمة، فيأخذ من بحياله خلفه مثل مل للإمام، ثم الذي عن يمينه إلى منتهى خمسة وسبعين، ثم الذي عن يساره خمسون، فمن دخل المسجد ؟؟ النصف الثاني عن غفلة لم[2] ينل من صلاة الرب عز وجل شيئاً، ولا من هذه الرحمة التي وصفت عن ابن عباس رضي الله عنه، فمن

[1] زاد هنا في أ: "هو".

[2] في ب: "فلم".

دخل فنوي أني لو وجدت مكاناً لدخلت في الصف الأول، فبهذه النية استوى هو بالصف الأول، وله مثل أجورهم لما نوى، كأنه فيهم. ثم إذا تمنى أن يدخل في الصف الأول، ونوى ذلك، وامتنع وتحرج[1]مخافة أن يؤذي مسلماً، أو يضيق عليه، يضاعف أجره على من في الصف الأول، بما اتقى أذى المسلم.

كذلك روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن النية، وفي شأن التقوى؛ عن أبي كبشة الأنصاري رضي الله عنه، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أحدثكم حديثاً فأحفظوه، إنما الدنيا أربعة نفر: عبد رزقه الله عز وجل فيها مالاً وعلماً، فهو يتقى لله عز وجل، ويصل رحمه فيه، ويعطي لله عز وجل منه حقه، فهو بأفضل المنازل.

وعبد رزقه لله عز وجل علماً، ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فأجرهما سواء. وعبد رزقه لله عز وجل مالاً، ولم يرزقه علماً، فهو يتخبط في ماله بغير علم، فلا يتقى فيه رباً، ولا يصل فيه رحماً، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل. وعبد لم يرزقه لله عز وجل مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالاً عملت بعمل فلان، فهو بنيته، فوزرهما سواء.

حدثنا الفضل بن محمد، حدثنا زريق بن الورد الرقي، حدثنا أسلم بن سالم، عن عبدالغفار بن ميمون، عن عبدالملك الجزرى، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من ترك الصلاة في الصف الأول،

---

[1] زيادة من ا.

مخافة أن يؤذي مسلماً أو يزاحم أحداً، فصلى في الصف الثاني أو الثالث، أضعف الله عز وجل أجره على من صلى في الصف الأول". فهذا بعقله نال زيادة الثواب على الصف الأول، والآخر بغفلته[1] وجهله سقط عن هذا الثواب. فهذا تفسير: "إنما أجزى الناس على قدر عقولهم". ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما يروى عنه. "لا يعجبنكم إسلام رجل حتى تعلموا ما عقدة عقله".

وحدثني بذلك أبي رحمه الله، حدثنا جندل بن واثق الكوفي، حدثنا عبدالله بن عمر الرقى، عن إسحاق بن أبي فروة، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالصادقون المخلطون[2] قلوبهم محجوبة بالشهوات، فنيتهم النهوض[3] بالقلب، إذا نهضوا لم يجدوا منفذاً، فيقفون حيث بلغوا من الجو. وأما الذين فتح لهم في الغيب، فإن قلوبهم تنهض إلى العلا، حتى تبلغ مقامه، فهناك يبتغى مرضاة ربه تعالى، وحركات الجوارح عند فراغه من العمل تلحقه على أثره، فذلك النهوض هو نيته؛ والسابقون الذين وصلوا إلى الله عز وجل في مقامه، يترضى ربه عز وجل، ثم يلحقه العمل على الأثر، فالنيات متفاوتة، فهؤلاء خدم.

وأما الملائكة عليهم السلام، فإنما يعملون في مصافهم ومقاومهم على الأبصار؛ وإنما خص جبريل عليه الصلاة والسلام من بين الملائكة،

---

[1] في ب: "بعقله".

[2] هكذا في أ، ب.

[3] زيادة من أ.

لأنه خادم ربه عز وجل، لأنه بين يديه على ساقه يخدمه باختلاف الأحوال؛ وأهل السموات في مصافهم؛ فالملائكة في أعلى الخلق مكاناً، وهم سخرة للآدميين. فأما إسرافيل عليه الصلاة والسلام فقابض الوحي[1]، ومؤديه إلى جبريل عليه السلام، وصاحب الصور، يدعوهم إلى الحشر وقبض الجزاء. وأما جبريل عليه السلام فصاحب الرسالة. وأما ميكائيل عليه السلام فقابض أرزاق الآدميين، والموكل بالقطر والنبات والرياح لمعاش الآدميين. وأما ملك الموت عليه السلام فقابض أرواحهم. وأما حملة العرش فموكلون بالإستغفار للآدميين. وأما الكوريون وأهل عليين. فموكلون بالإستغفار والتضرع، والبكاء على أهل الذنوب من الأدميين.

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: لما أسرى بي، سمعت دوياً، فقلت ما هذا ياجبريل؟ قال: هذا بكاء الكوريين على أهل الذنوب من أمتك". وأما أهل السموات فموكلون في صلاتهم بالإستغفار ووفارة التقصير؛ وآخرون موكلون بالرياح، وآخرون موكلون بالسحاب، وآخرون موكلون بالشمس، وموكلون بالقمر، وموكلون بالنبات، وموكلون بالجبال، وموكلون بالبحار، وموكلون بالليل والنهار، وموكلون بالحر، وموكلون بالبرد، وموكلون برزق الخلق صباح كل يوم، وموكلون بالثلج، وموكلون بأعمالهم: حفظة كتبة، وموكلون بالحراسة، وهم المعقبات؛ وموكلون بالهداية على القلوب، وموكلون بالهداية في الأسفار

---

[1] زيادة من أ.

بالإستقامة[1]، وموكلون بإتمام الكلام، فإذا قال: الحمدلله، قال الملك: رب العالمين؛ وإذا قال العبد: سبحان الله، قالت الملائكة: وبحمده، ويكتب ذلك لصاحبها[2]؛ وموكلون بصلاة الآدميين في صفوفهم، فكلما زاد رجل زاد معه ملك معه رحمة؛ وموكلون بحجهم، وفي مشاهدهم وموقفهم؛ وموكلون بالزحف للنصر عند لقاء العدو؛ وموكلون بجنائزهم للتشييع[3]، فهم أمام الجنازة؛ وموكلون بليلة القدر، ونزول الروح، والتسليم على الآدميين؛ وموكلون بالأعياد وحمل الجوائز؛ وموكلون بالتثبيت للآدميين في أعمالهم؛ وموكلون بنزع الأرواح منهم، ورفعها إلى الله عز وجل مع ملك الموت؛ وموكلون بتشييع أرواحهم إلى العرض على الله عز وجل، في مقام العرض؛ هذا كله في الدنيا؛ ثم إذا قامت القيامة، فموكل بنفخ الصور، وموكل بالبشرى للموحدين، وموكل بحمل الكسوة للآدميين، وموكلون بالرحمة، ليقسموها عليهم، وموكلون بجنبات النار، ينادون ربهم عز وجل، يسألونه السلامة، وموكلون بوزن الأعمال، وعرض الدواوين؛ وموكلون بحمل[4] الأعمال من الخزائن إلى الموقف؛ وموكلون بتشييعهم إلى الجنان من الموقف؛ وموكلون في الجنان بالخزانة: قهارمة، وزوار، وحملة هدايا من رب العالمين؛ وجبريل صلى الله عليه وسلم موكل في الدنيا بأداء الوحي، وتبليغ الرسالة، ويوم القيامة بوزن الأعمال، وفي الجنة بالنداء من بطنان العرش، للزيارة إلى رب العالمين.

---

[1] زيادة من ب.

[2] في ب: "لصاحبه".

[3] في ب: للتشييع.

[4] في ب: "بعرص".

فوجدنا الملائكة كلهم مسخرين لنا في الدنيا، ويوم القيامة، وفي الجنان إلى الأبد؛ فآدم عليه السلام خليفة الله عز وجل في أرضه، والملائكة جند الخليفة، يعملون له ولولده ما ذكرنا في ولده، فما خرب ولده عمرته الملائكة، وما أفسد ولده أصلحته الملائكة، وما دنس ولده غسلته الملائكة [١] وطهرته.

وروي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: قالت الملائكة: يا ربنا، منا المقربون، ومنا الصافون المسجون، ومنا الكرام الكاتبون، ومنا ومنا، جعلت الدنيا لبني آدم يأكلون ويشربون، فأجعل لنا الآخرة. قال: لن أفعل. فعاودوه بمثل مقالتهم، فقال: لن أفعل. ثم عاودوه في الثالثة، فقال: لن أفعل، لن أجعل صالح ذرية من خلقت بيدي، كمن قلت له: كن فكان، هم عبادي المقربون، والملائكة عباد مجبورون، ومكرمون بالعبادة والطهارة، والآدميون خدم وتجار معاملون، فالمعرفة رءوس أموالهم، والحركات تجاراتهم، ومرضاة الله عز وجل أرباحهم، قال الله عز وجل: "والله يعلم متقلبكم ومثواكم[٢]"، تقلبوا في مرضاته، وثووا في جناته، تحت عرشه في جواره، فأكرم الله تعالى هذا المؤمن بمعرفته، فأحرزه في ذمته، وحرم عرضه ودمه وماله، وعظم حرمته، فأعلمهم بالله أعظمهم حرمة، وأقربهم وسيلة، وأكرمهم عليه، فمثل العالم به كمثل رجل نظر إلى شخص رجل، حتى عرفه بالوجه، فهو ساكن القلب، حتى إذا عرفه بخصلة من خصال الشرف، فوجد قلبه قد تغير له إلى التعظيم

---

[١] زيادة من أ.

[٢] سورة ٤٧، آية ١٩.

والإجلال، فإن كان قد جمعت هذه الخصال في رجل واحد، مما وصف الله عز وجل بها نفسه، من الجود والغنى، والرأفة والرحمة، والسماحة والكرم، والمعرفة بالأمور، والقوة والتدبير، ومحاسن الأخلاق، عظم شأن الرجل عندك، حتى تهتم في ذكره وأوصافه، فمن كشف له الغطاء حتى عرف ربه عز وجل بأسمائه الحسنى، وبأمثاله العلا، كان أسبى لقلبه، وألهج لذكره.

وابن آدم مطبوع على سبعة، وهي الغفلة، والشك، والشرك، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغضب. فهذه سبعة أخلاق، فإذا جاءه نور الهداية حتى عرف ربه عز وجل ووحده، ذهبت الغفلة، وذهب الشك والشرك؛ فهو يعلم ربه يقيناً، وينفي عنه الشرك، وزال الشك عنه. ثم لما جاءت الشهوة، فأظلم الصدر بدخانها وفورانها، ذهب بضوء علمه وإستنارته، وتحير في أمر ربه عز وجل كالشاك، وظهر شرك الأسباب، فكلما ازداد[1] العبد معرفة وعلماً بربه عز وجل، استنارة قلبه وصدره، وانتقص من الغفلة، ومن هذه الخصال السبع كلها، حتى يمتلئ صدره من عظمة الله عز وجل وجلاله، فعندها كشف الغطاء، وصار يقيناً، وزايله شرك الأسباب، وماتت الشهوة، وذهب الغضب، وذهبت الرغبة والرهبة، فلا يرغب إلا إلى الله عز وجل، ولا يرهب إلا منه، ولا يغضب إلا في ذات الله عز وجل ولله، ولا يشتغل بشهوة إلا بذكر الله عز وجل.

قال له قائل: صف لنا من رياضة النفس شيئاً. قال:[2] إن النفس إذا

---

[1] في ب: "زاد".

[2] زيادة من أ.

اعتادت اللذة والشهوة، والعمل بالهوى، أقبل على فطمها عن العادة في كل شيء، فكلما اشتد عليها فطم شيء فأقبل قبل ذلك الشيء حتى تفطمها عنه، حتى يصير قلبك حراً، يألف مع الله عز وجل ببره ولطفه، فقد رأيت البازي كيف يلقى في البيت، وتخاط عيناه، حتى ينقطع[١] عن الطيران، ويربى باللحم، ويرفق به، حتى يأنس بصاحبه[٢]، ويألفه إلفاً، إذا دعاه فسمع صوته أجابه.

فكذلك النفس، إنما تجيب ربها عز وجل فيما أمرها بعد فطامها عن عادات الأمور التي اشتهت ولذت، فإذا[٣] فطمها ألزمها الدعاء، وثناء الرب عز وجل ومدائحه ونجواه، حتى تأنس بذلك، وتألف الذكر، حتى ينكشف الغطاء بعد ذلك، فيألف ربه عز وجل.

وكذلك تجد الصبي قد ألف ثدي أمه، حتى لا يكاد يصبر عنه ساعة، فإذا فطمته اشتد على الصبي، وبكى وقلق، فإذا دام الفطم[٤] نسيه، وأقبل على الطعام والشراب، فكلما وجد حلاوة الأطعمة والأشربة هجر الثدي، وعاف[٥] ذكر اللبن.

وكذلك تجد الدابة تؤخذ من الدواب السائمة، لتؤدب وتعود الركوب؛ ففي الابتداء تنفر عن اللجام والسرج، فتشكل حتى تسرج،

---

(١) في أ: "ينفطم".

(٢) في ب: "صاحبه".

(٣) في أ: فطمتها ألزمتها.

(٤)في أ: "القطع".

(٥) في أ: "وعافا ذلك".

وتلجم حتى تعتاد، وتعلم السير حتى تصير أذنها إلى العنان، وقلبها إلى إشارات الراكب بذلك العنان، فإذا بلغ بها القنطرة وثبت وثبة لا تدعها تجور، فتعتاد ذلك، فليس في كل مكان يوجد قنطرة، فيعودها الوثب وسيرها في جلبة[1] الصناعين، مثل[2] الحدادين والنجارين، فإذا نفرت من تلك الأصوات أو تركت سيرها، أدبها حتى لا تنفر ولا تتحير، حتى تصير أديبة[3] سيورة.

فكذلك الآدمي، يؤدب كما تؤدب هذه الطيور والدواب، بالفطم عن عاداتها، وكل شيء تجد النفس لذته في وقت تفرح بذلك الشيء، فإذا فرحت به فقد تدنس بذلك الفرح، فيصير غشاء عليه، حجاباً له من ذلك الفرح؛ فكان أهل الصدق في هذه الطريق يلزمون هذا الباب الذي وصفت، فكل شيء تفرح نفوسهم به من وجود لذة ذلك الشيء كائناً ما كان، من طعام أو شراب، أو لباس، أو أهل، أو ولد، أو أخ، أو مؤنس، أو أصحاب، أو أمكنة، أو عرض من عروض الدنيا؛ فكانوا يتوقون الفرح لذلك. فيأخذون من ذلك الشيء الذي لابد لهم منه على الضرورة، ثم يهربون من لذته، خوفاً على النفس أن تفرح بذلك، فإذا دام على ذلك صاحبه، فذلك تقوى الباطن. وأما تقوى الظاهر فهو حفظ الجوارح مع الخلق والملائكة.

---

(1) في ب: حملة.

(2) في أ: الحدادت والتجارت.

(3) في ب: "أذنية".

فإذا فعل ذلك فأدى الفرائض لمواقيتها[1] وحددوها، واستعان على النفس برؤية الموتى والمقابر وأهل السجون، والمواضع التي فيها النيران العظيمة، من الأتون ومذاب جواهر الزجاج[2]، فإن في ذلك قمعاً للنفس، أورثه فعله بنفسه الغم، ومن الغم الهم والأحزان. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما عبدالله عز وجل بمثل طول الأحزان".

تم كتاب الرياضة، بحمدالله ومنه

وصلى الله على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

---

[1] في أ: "بمواقيتها".

[2] في أ: "الرصاص".

كتاب أدب النفس

للإمام أبي عبدالله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي

بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر وأعن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الشيخ الإمام العارف، أبو عبدالله محمد بن علي الحكيم الترمذي، رحمه الله تعالى:

إن الله انشأ خلقه لإظهار ربوبيته، ولبروز آثار قدرته، وتدبير حكمته، وليكون ذكره ومدحه مردداً على القلوب، وعلى ألسنة الخلق والخليقة، لما علم في غيبه، فأنبأنا في تنزيله، فقال جل ذكره: "وخلق الله السموات والأرض بالحق، ولتجزي كل نفس بما كسبت[١]"، فأعلمنا لم[٢] خلق، فقال: "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون[٣]".

فقال أهل اللغة: إلا ليوحدون، ومثل ذلك قوله تعالى: "إياك نعبد[٤]" يعني نوحد، لأن في توحيدهم إياه بأن لا إله إلا هو، إقرار له بالملك والقدرة، وإضافة الأشياء إليه. فهذه الكلمة تنتظم المدح، وأباح ذكره على كل حال، تقديماً له على سائر الحالات وأعمال البر، وحصر ما سواه من الأفعال في أوقات مخصوصة، مع ما ذكر في الكتاب، وجرت به الأخبار عن الرسول صلى الله عليه وسلم، بتفضيل الذكر على سائر الطاعات، لأن في الذكر مدحه، وجاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما أحد أحب إليه العذر من الله تعالى، ولا أحد

---

[١] سورة: ٤٥، آية ٢٢.

[٢] في الأصل: لما.

[٣] سورة: ٥١، آية ٥٦.

[٤] سورة ١، آية ٤.

أحب إليه المدح من الله تعالى جده". حدثنا بذلك الجارود، قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل؛ من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحد أغير من الله عز وجل؛ من أجل[1]ذلك حرم الفواحش"، وندب العباد في غير آية من كتابه إلى أن ينشروا ذكره، ويذكروا عنه جميل صنائعه، فقال تعالى: "ولله الأسماء الحسنى فأدعوه بها[2]". في كل ذلك يحثهم على مدحه وذكره بالجميل والثناء الحسن، وفي كل إسم له مدحه، وجميل ذكره، ودعاهم إلى توحيده، فقال: "لا تتخذوا إلهين إثنين إنما هو إله واحد"[3]. وقال: "وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون"[4] أي وحدون، لأنك لا تكون له عبداً حتى يكون لك رباً لا شريك له، فمن أشرك به خرج من نظام التوحيد، فهو وإن كان له عبداً من طريق الملك، فالعبد بنفسه لم يصير نفسه عبداً، فيكون قد وحده وعبده، وإنما أطاعه لأن الله تعالى أمره أن يطيع، فأطاع مولاه بأمر الله تعالى، فمن أطاع بأمر الله فهو مطيع لله، ثم إن الله تعالى دعاهم إلى أن يوجدوه قلباً وقولاً وفعلاً، فمن قبل ذلك منه جملة، فاستقرت المعرفة بأنه واحد، فاطمأن به قلبه، وترجم به لسانه عما في ضميره، وعزم على الفعل مائلاً له فقد آمن به، وهذا كله من العبد في وقت واحد، فركب

---

[1] زيادة ليست في الأصل.

[2] سورة ٧، آية ١٨٠

[3] سورة ١٦، آية ٥١

[4] سورة ٢١، آية ٢٥

فيه الشهوات والهوى، وجعل للشياطين فيهم وساوس يجرون فيهم مجرى الدم، ويغوصون غوص النون في البحر، وجعل القلب ملكاً على الجوارح، فالشهوة تحرك البدن الساكن، وتزعج القلب، والشيطان يمنيه ويزين له ويعده، والهوى يميل به ويقوده، فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان، والتوحيد ظاهر على لسانه، فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات، وزين له العدو، ومال به الهوى، حتى يفعل الفعل الذي يخيل إليك في الظاهر أنه لم يؤمن بعهد، فهو موحد بالقلب واللسان، ولكن لغلبة الشهوة وقوتها، فبظلمة هذا الهوى، ووسوسة هذا العدو والتزين، غلب على القلب لأعلى ما في القلب، مما في القلب من المعرفة، مما في القلب في المعرفة، فالقلب به مطمئن، ولكن صار مأسوراً مقهوراً، وهو أبداً لمن غلب عليه وقهره.

فخلق اللوح، وجرى القلم بمقادير الخلق، وخلق السموات والأرض، والظلمات والنور، والليل والنهار، والملائكة، والجنة والنار، والجن والشياطين، والجبال والبحار، والدواب والأقوات والمعايش، وسائر الخليقة.

ثم خلق آدم عليه السلام، فاصطفاه، وجعله بديع فطرته، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء، وأبان فضله وكرم بنيه، وحملهم في البر والبحر، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، وسخر له ولذريته ما في

السموات والأرض، واستخرج ذريته من ظهره، وأخذ عليهم الميثاق، ثم ردهم إلى صلبه، ثم نقلهم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى دار الدنيا، ليعبدوه، وليوفوا له بما عهد إليهم يوم الميثاق، بأن لا يشركوا به شيئاً إلى آجالهم التي كتبها في المقادير، إلى أن تنقضي مدة الدنيا، فيبعثهم للجزاء، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات، وبرزوا لله الواحد القهار، وليجزى كل نفس بما كسبت، ليكونوا فريقين، فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير.

فمن نوّر الله قلبه بالإيمان قويت معرفته، واستنارت بنور اليقين، فأستقام به قلبه، واطمأنت به نفسه، وسكنت ووثقت وأيقنت، وأتمنته على نفسها، فرضيت لها به وكيلاً، وتركت التدبير عليه، فإن وسوس له عدو بالرزق والمعايش، لم يضطرب قلبه ولم يتحير، لأنه قد عرف ربه معرفة أنه قريب، وأنه لا يغفل ولا ينسى، وأنه رءوف رحيم، وأنه رب غفور رحيم، وأنه عدل لا يجور، وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء، وأنه يجير ولا يجار عليه، فكما خلقه محتاجاً مضطراً، فإنه سيوصله إليه من حيث يريد الرب تبارك وتعالى، لا من حيث يريد العبد، على الهيئة التي يريد الرب، لا على الهيئة التي يريد العبد، وبمقدار ما يريد الرب، لا بمقدار ما يريد العبد، وفي الوقت الذي يريد الرب، لا في الوقت الذي يريد العبد؛ فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهذا، إيماناً به، وقبولاً له، ولم يستقر ذلك الإيمان في قلوبهم، حتى إذا كان وقت، الحاجة اضطربت قلوبهم وتحيرت، واشتغلت عن خالق الأشياء، ومالك الملوك، وأهل اليقين الذين قد استنار الإيمان في قلوبهم، سكنت القلوب، واطمأنت

النفوس إلى ضمان ربها، وقر به منهم، وقدرته عليهم. فهذا شأن الرزق والمعاش، وفوضوا أمورهم فيما سوى المعاش إليه، واتخذوه وكيلاً، لأنهم لما عرفوا بأنه رءوف رحيم منهم بأنفسهم، وأحق وأولى بأنفسهم من العبيد بأنفسهم، لأنه خلقهم فصورهم، وركبهم وأحسن تقويمهم، وسوى تعديلهم، فلم يكن لهم بأنفسهم من العلم والتدبير ما دبر لهم، وعرفوه ملكاً قادراً قاهراً، يفعل ما يشاء، قد سبق علمه فيهم، بما يكون فيهم ولهم وعليهم، وجرى مع سابق العلم لهم بذلك قلمه في اللوح المحفوظ، ليكون أوكد في قلوب العباد، لأن سابق العلم غائب عن القلوب لا يدري كنفسه، واللوح قد خط بالقلم فيه أمر محدود، وشخص مخلوق، ويدرك بالقلوب معاينة، فما عاين القلب وأدركه أثبت عندهم مما لا تعانيه القلوب، ولا يمكن توهمه، فخلق اللوح وأثبت مقاديرهم فيه، لا لحاجة به إلى ذلك، وليكون أثبت على القلوب، لتسكن النفوس وتستقر على ما جرى القلم به، فإذا سكنت النفوس، تفرغت القلوب لعبادته، وحفظ حدوده، وإقامة أموره، وسقطت أشغال النفوس عن القلوب فيما يراد بها، وما يكون وما يحدث، لأنها قد أيست عن أن يكون غير ما جرى به القلم، وعند الإياس تسكن النفوس، وإنما دعانا إلى أن نعبده، ونقيم حدوده، ونقيم فرائضه، ونتجنب مساخطه، ولنا قلب واحد، فأثبت في اللوح أرزاقنا وسعينا، وآثارنا وأحداثنا، ومدة آجالنا، وعامة أمورنا، لتطمئن النفوس، وتخلص القلوب من وساوسها، فتكبده بفراغ، وكل ذلك منه رحمة علينا، وبين ذلك في تنزيله، فقال تعالى: "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن

نبرأها[1]"، أي من قبل أن تخلق تلك المصيبة، ثم بين لم فعل ذلك، فقال: "لكيلا تأسوا على ما فاتكم، ولا تفرحوا بما آتاكم[2]". فإن التأسي على الشيء الذي لم يقدر لك في اللوح هو استبداد وطلب ما ليس لك، والفرح بما آتاك يلهيك ويشغلك عن المعطى، حتى تأشر وتبطر بما تعطي، فتهلك، وإنما المبتغى منك في ذلك أن تلهو عن الغائب، وتفرح في الموجود الذي أتاك بالأهل الذي أتاك، تم بفضله ورحمته عليك، وإلى هذا ندبك فقال: "قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا، هو خير مما يجمعون"[3]. وقال تعالى في شأن الرزق: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، كل في كتاب مبين".[4] ثم قال تعالى: "وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها، ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين".[5] أي من يأكل تلك الحبة ومن يرزقها. فإن اضطربت نفسه على ضمانه لقلة اليقين وغلبة الهوى وحرارة الشهوات، خاطب نفسه فقال:

يا أيتها النفس لم تضطربين؟ قالت: لأني محتاجة، وخلقت مضطرة، ذات شهوات، لا أبصر أمكنة الأشياء، ولا أعرف أوقاتها، ولا أعلم مقدارها، واشتبهت على كيفية أسباب وصولها إلي. فقال لها: أيتها

---

[1] سورة ٥٧، آية ٢٢.

[2] سورة ٥٧، آية ٢٣

[3] سورة ١٠، آية ٥٨

[4] سورة ١١، آية ٦

[5] سورة ٦، آية ٥٩

النفس، إن كنت قد آمنت بربك، فحقيق عليك أن يكون كلام رب العالمين ووعده وضمانه وتكفله، أثبت عندك وأوكد وأقوى من الذي تبصرينه على المشاهدة، لأن البصر ربما اخطأ، وربما كان مسحوراً، يرى أنه كذلك وليس كذلك، وقول رب العالمين أصدق وأبر، وأوفى وأثبت من بصرك بعينك، فلو أبصرت الشيء الذي يحويه ملكك اطمأننت وسكنت، فكيف لا يكون بضمانه أشد طمأنينة، أرأيت لو كان لك ديوان فيه غرماء ملاء أسماؤهم، مكتوب فيه: على فلان ألف درهم، وعلى فلان ألف دينار، وعلى فلان عشرة آلاف درهم، أ كنت تطمئنين؟ فإن وجدتها قد طابت وسكن إضطرابها لما وجدت في الديوان من أسماء هؤلاء، وهم أهل صدق ووفاء، فأنشر عليها ديوان رب العالمين، وهو القرآن المجيد المنسوخ في اللوح المحفوظ، تنزيل من الرحمن الرحيم، نزل به الروح الأمين، على قلب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، رسول رب العالمين، فقلب أوراقه، حتى تقف بها على آية الرزق، حيث يقول تعالى: "وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها[1]" . ثم قل لها: أيتها النفس المطمئنة، وجدت في ديوانك على هؤلاء الغارمين ما وجدت، وفرحت وأمنت الفقر فطبت، فهذا في المصحف قوله: "على الله رزقها".

أهذا أعظم شأناً، وأصدق وأبر وأوفى، أم الذي وجدت في ديوانك؟

[1] سورة ١١ آية ٦

أما تستحين أن تلقى ربك بهذه الحالة، ولكني قد فهمت لم اضطربت بعد أن أيقنت بضمان ربك، إنك ذات شهوات، فيك شهوة العز، فأنت تهربين من الذل، وفيك شهوة ألوان الطعام، فأنت تهربين من البؤس، فيك شهوة إدراك المنى، فأنت تهربين من قوتها. وإنما تضطربين لأنك أردت أن يكون رزقك في وقت، وأراد ربك في وقت آخر، واشتهيت أن يكون على صفة، وأراد ربك غير ذلك، وأردت من وجه راحة، وأراد ربك من وجه تتعبين فيه، وأردت كثيراً، وأراد ربك أقل من ذلك، فأصبحت وأمسيت مخالفة لربك في مشيئاته وإرادته، فحملك ذلك على الشهوة، حتى غلبتك، فرمتك في أودية المهالك، فأقبلت بهلعك وجزعك على حطام الدنيا، من سبيل الخبائث والأقذار والشبهات والأوساخ، لسكون نفسك به، ثم منعت حقوق الله فيه من ظاهر الأحكام، فقطعت الأرحام، وباغضت العباد، واستخففت بحقوق المسلمين والمؤمنين، وهربت من إنصافهم، وجفوت أهل الحرمة، فأصبحت وأمسيت ظلوماً غشوماً، ووعيد الله ينادي في سمعك قوله تعالى: "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين[١]". فهل تعرف مقدار الخردلة من الظلم ماهو، وكيف يكون؟ لو نجع فيك هذا الوعيد لطارت منك الشهوات، ومات منك الهوى.

فأهل الفهم راضوا أنفسهم وتدبروا، فقالوا: كيف كيف لنا بأن لا نأسى على ما يفوتنا من الدنيا، وتمنوا إليه حاجة، وطلبوا من أين يدخل

---

[١] سورة ٢١، آية ٤٧.

الضرر عليهم، فوجدوا أنهم لما عارضتهم الحوائج في أنفسهم، تحدثوا بها وتمنوها، وطلبوها على التملك والاقتدار، وأطمعوا أنفسهم في إصابتها، فلما فاتهم، وجدوا الأسى والحزن على فوت ذلك؛ ففهموا أن هذا إنما دخل عليهم من أجل أنهم تمنوها، وأطمعوا أنفسهم في إصابتها، فوجدت النفس حلاوة وجودها، وقوى الهوى، فراضوا أنفسهم بترك الشهوات، وقطع المنى، فخمدت نيران شهواتهم، ففارقوا الهوى جهدهم، لمجاهدتهم إياه، حتى ذلل وانقمع، وكلما بدا لهم أمر، أو خطر ببالهم، لم يتمنوا ولا أطمعوا أنفسهم، وانتظروا مايبرز لهم من المسطور في اللوح السابق قبل خلق السموات، فسلموا لربهم، وانقادوا لحكمته كالعبيد، فعاشوا في الدنيا بأرفع درجة، وأكرم منزلة عند أنفسهم، وأنعم بال وأقر عين بهذا الدين، وماتوا بروح وريحان، ولقوا رباً غير غضبان، رضوا عن مولاهم، فرضى عنهم، فأيدهم في الدنيا بروح منه، وفي الآخرة قربهم ولطف بهم، "أولئك حزب الله، ألا إن حزب الله هم المفلحون"، أولئك "أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون". استنارت قلوبهم باليقين، فصارت أمورهم في نوائبه[1] كالمعاينة، كلما حل بهم أمر من عسر أو يسر، أو خوف أو أمن، أو ذل أو عز، أو بلاء أو نعمة، حرقت أبصار قلوبهم، فأبصرت في لحظة أن هذا الأمر قد كان في اللوح المحفوظ كما برز لنا الآن، وهو حكم الله علينا، لم يكن فيهم من الشهوات ولا من الهوى من القوة ما يثقل عليهم قبوله من ربهم، وتلقوا أمره بالهشاشة وطلاقة النفس وبشر الوجوه، فهم الراضون والصابرون،

---

[1] في الأصل: "نوايبهم".

قبلوا على كره من نفوسهم وجهد، لأن شهواتهم حية قوية في نفوسهم، ويقينهم ضعيف، لم يبصروا اختيار الله لهم ذلك، ورأفته ورحمته عليهم، ولم يكن لإختيار الله تعالى ولا لمشيئته عندهم موقع حلاوة، فكانت تلك الحلاوة تمازج مرارات النفوس، فتذهب بالمرارة، كما تجد المرارات في الأدوية، فتمزج بالعسل والسكر وما أشبه ذلك، فيغلب عليه، فتفقد تلك المرارات منه؛ وإنما تقع حلاوة صنع الصانع في قلبك على قدر حبك للصانع، وإنما تحب الصانع على قدر معرفتك بقدره، وكلما كنت به أعلم، وكان هو أرفع منزلة في الأشياء، كان قدره عندك أعظم، وهو إليك أحب، ولذلك قيل: أشدهم حباً له أعلمهم به، وأعرفهم له، ومنه قول بديل العقيلي: "من عرف ربه أحبه، ومن عرف الدنيا زهد فيها".

رواه ابن المبارك، عن سفيان الثوري رحمهما الله تعالى، قال: كتب الحجاج بن فرافصة عن بديل رحمه الله.

فمن عجز عن الرياضة، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيئاته على حد الإيمان، وصبر على أموره على حد التقوى بأركانه، على ثقل من نفسه، وتنغيص وتكدير من عيشه، وجهد من قبله؛ ومن راضها وأدبها استقامت في السير، وانفطمت عن أخلاقها، وتداركه ربه بالنصر والمدد، وأنجز له الوعد؛ فقد بين هذا الشأن في آيتين من كتابه، فقال: "وجاهدوا في الله حق جهاده[1]" فأمر بمجاهدة النفس، وفطمها عن أخلاق السوء،

---

[1] سورة ٢٢، آية ٧٧.

عن أن يريد غير ما يريد الرب جل وعلا، فلو تركنا في جميع أعمارنا لكان، هذا أمراً هائلاً عظيماً، لكنه وعد في آية أخرى أن يخلصنا من وباله، ويؤدبنا ويصبرنا، فقال: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين(١)". فهو هاديك، وهو معك في النصر والتأييد، فرحمته منك قريب، ممن يقويك(٢) ومن يدركك.

وإنما الشأن أن تجاهد في بدء أمرك حق جهاده، فإذا أنت قد ظفرت بالوعد الثاني قد أنجزه لك، فإذا هداك السبيل ملأ قلبك نوراً وكلاءة ورعاية حتى لا تزيغ، فهو المنيب، المقبل على ربه، القابل لأمره بالهشاشة والسرعة. ألا ترى إلى قول الرسل الذين مضوا عليهم السلام، حكى عنهم الرب تبارك وتعالى، حيث قالوا: "وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا(٣)". والتوكل هو أن تفوض أمرك إلى ربك، ثم ترضي بما يصنع بك، فعلموا في قلوبهم أنهم أنما قووا على ذلك بما هداهم الله لسبيله. ومما يحقق ما قلنا في شأن الراضي والصابر، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس. رضي الله عنهما: "فإن إستطعت أن تعمل لله بالرضا واليقين، فأفعل؛ فإن لم تستطع فأصبر، فإن الصبر على ما تكره خير كثير. وأعلم أن مع العسر يسرا، ومع الكرب فرجاً". حدثنا بذلك علي بن حجر، قال حدثنا بذلك إسماعيل بن عياش وعيسى بن يونس، قالا: حدثنا عمر مولى

(١) سورة ٢٩، آية ٦٩.

(٢) في الأصل: يقوى بك.

(٣) سورة ١٤، آية ١٢.

غفرة، عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك؛ فقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم المنزلتين في هذا الحديث.

وأعلم أن الصابر عاجز عن مقام الراضي، وأن الراضي باليقين أدرك ذلك، لأنه عاين عواقب الأمور، وذلك بمنزلة رجل كان له كيس من دراهم، افتقده من حيث وضعه، وهو لا يملك شيئاً سواه، فثار في رأسه كالثيران، من شدة الوجد لفقده، حتى تبين ذلك في أحواله وفي وجهه، وظهر اغتمامه بذلك، فقال له رجل مليء وفي بر صدوق: أنا أعطيك رأس السنة بدل كل درهم ديناراً[1]؛ فسكن إلى قوله، وسكن بعض ما به من الوجد، فلا يخلو من الاغتمام، ويضيق صدره بمضي هذه المدة، فهو يصبر على كره، إلا أنه مازج ما أطمع فيه، الوجد الذي في نفسه، فخف ما به وهو كاره صابر؛ ورجل آخر افتقد كيساً من دراهم، وفي ملكه ملء بيوت من جواهر، كل جوهر لا يدرى ما قيمته فما يتبين عليه فقد ذلك الكيس، ولا يبالي فيه، وهو في ذلك كالذي افتقد فلساً وعنده كيس من دراهم، فالأول هو غني بالمال، والثاني غني بربه ومليكه، فالأول فرح بالمال والأحوال، والثاني فرح بالله، ثم بفضله ورحمته، عامة ملجئه ومفزعه إلى الله عز وجل، فالأول قلبه مأسور بالأشياء، قد ملكته حلاوة الأشياء، والثاني سكن قلبه حلاوة قرب الله عز وجل، فالأول قلبه بالأشياء، وبالأشياء تعلقه؛ والثاني مشتغل بالله وإليه منيب، وبه متعلق.

---

[1] في الأصل "دينار".

ومما يحقق عندنا حال هذا الثاني، ما أتت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعن السلف الصالح من بعده، حدثونا به عن ابن المبارك، عن صالح المرى، عن حبيب أبي محمد، وهو العجمي رحمه الله، عن شهر بن حوشب، عن أبي ذر رضي الله عنه ولم يرفعه؛ وأما غير ابن المبارك فرفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: يقول الله تبارك وتعالى لجبريل عليه السلام: يا جبريل، انسخ من قلب العبد الحلاوة التي كان يجدها بي، فيلسخها من قلبه، فيصير العبد والها.

فإن اعترض في هذا القول معترض بالإنكار، وقال هذا غير موجود في الأنبياء والرسل عليهم السلام، فقد جاءنا عنهم أنهم كانوا يبكون في المصائب، ويحزنون عليها، ويجدون ألم الأشياء المكروهة، ويفرحون في المحبوب. فيقال له: يا عاجز، وما يدريك من أي شيء بكت الرسل وحزنت؟ وكيف كان همهم في المكاره؟ وكيف كان فرحهم؟ ومن أي شيء فرحوا؟ فرب فرح محمود، وعلى ذلك حب الله عباده؛ ورب حزن ممدوح أهله في الدنيا والآخرة، ونطق الكتاب بالثناء عليهم، والبكاء على سبعة أنواع، فما فوقها، كل نوع منها من شيء غير الآخر، فهل ميزت بين هذه الأشياء، وهل اطلعت مطلع هذه المنازل؟ أم أنت برجل تبعث شيئاً من هذا العلم تفخر به، وترأست به، فأنت تريد أن تطفىء نور الله بفيك، وتنسب الرسل إلى مالم يأذن به الله، وتحير الخلق في سبيل الله، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون.

فأما فرح المتقين فبفضل الله ورحمته، وعلى ذلك دلّ عباده؛ وأما فرح الأنبياء والصديقين فيه تبارك إسمه؛ ولذلك روى لنا عن مالك بن

دينار رحمه الله، قال: قرأت في بعض الكتب: يا معشر الصديقين، تنعموا بذكرى، فإن ذكرى لكم في الدنيا نعيم، وفي الآخرة جزاء. وقال في حديث آخر: "آثرتموني على شهواتكم، ورضيتم بي بدلاً من خلقي، فبي فافرحوا، وبذكري فتنعموا، فوعزتي ما خلقت الجنان إلا من أجلكم. وحدثنا عبدالرحيم عن حبيب الفارياني، في حديث له ذكره عن حبيب العجمي رحمه الله، أنه كان يقول [ما][١] تفسيره: يارب. فرحت حتى كدت أموت من الفرح، مثلك لي رب وأنا عبدك: "خدايا عجب است ممكن أرشادي بميرم كه مراجو توخدائي"[٢]، وأما بكاؤهم فكانت الأنبياء عليهم السلام أرحم البرية، فكلما ازداد العبد من الله تعالى قربة، إلا كان له من الرحمة ما ليس لغيره.

حدثنا بذلك الجارود بن معاذ رحمه الله، عن علي وعمير بن عبدالله، فكانوا في المصائب يرحمون، فيبكون ما يرون، وكانوا أعلم الناس بالموت، وكنه مرارته، وعظم شأنه، وخطر المقدم على الله عز وجل، فكانت قلوبهم ترق لما يرون، ألا ترى أنه قال في حديث إبراهيم ابنه: "إنما هذه رحمة، ومن لا يرحم لا يرحم". فكان يبكي، ويعدّ ذلك رحمة ويحتسب بذلك البكاء على الله عز وجل؛ ألا ترى أنه عاب من لا يرحم، فكانت تلك منه رقة، ومن هؤلاء القوم فتنة وصبابة.

وكذلك وجدنا الخبر عن حزن يعقوب عليه السلام، أنه قال ليوسف

---

[١] زيادة ليست في الأصل.

[٢] جاءت هذه الجملة في الأصل هكذا: "خدايا عجب است كمن أز شاذى بمير كمرا جو تخذاء". وقد حققناها كما يرى.

عليه السلام: يا بني، إنما حزنت عليك مخافة. وأيضاً من طريق آخر قد يجوز أن يكون الله سبحانه إذ جعلهم أئمة الخلق، هيج منهم أشياء، ليكون لمن بعدهم بذلك اعتبار.

وفي هذا كلام إلى غاية الطول، قد بيناه في كتاب "صفة القلوب وأحوالها، وهيئة تركيبها" وما يتردد في النفس في صدور القلوب.

رجعنا إلى ذكر "رياضة النفس":

قال له القائل: وما رياضة النفس؟ وكيف يكون ذلك؟ قال: يسير على من يسره الله ووفقه. فأما الرياضة فهي مشتقة عربيتها من الرّض، وهو الكسر؛ وذلك أن النفس اعتادت اللذة والشهوة، وأن تعمل بهواها، فهي متحيرة، قائمة على قلبك بالإمرة، وهي الإمرة بالشهوة، فيحتاج إلى أن يفطمها، فإذا فطمها عن العادة انفطمت.

ويقال في اللغة: راض ورض بمعنى واحد؛ فمن قال رضّ، فلما أدغم الألف في الضاد، فشدّد[1]، ومن أبرز الألف خفف الضاد، فقال راض، فالرض الكسر، فقيل في الأشياء المكسورة رض، وقيل في الأخلاق المكسورة راض. فهذه النفس إذا فطمتها انكسرت عن الإلحاح عليك، ومنازعتك في الأمور، فإن النفس اعتادت اللذة والشهوة، وأن يعمل بالهوى، فإذا فطمتها عن العادة انفطمت؛ ألا ترى أن الصبيّ إنما اعتاد ثدي أمه، كيف سكونه بذلك الثدي، إنما يحنّ إليه إذا فقده، وكيف يفرح به إذا وجده؛ فكذلك النفس الشهوانية، فإذا فطم الصبي

---

[1] كذا في الأصل. ولا ضرورة للفاء.

انفطم، حتى لا يلتفت إلى الثدي بعد ذلك، لأنه وجد طعم ألوان الأطعمة، فلا يحنّ إلى اللبن، كذلك النفس إذا وجدت طيب اليقين، وروح قرب الله تعالى، وحلاوة اختيار الله عز وجل له، وجميل نظره لها، لم تحنّ إلى تلك الشهوات.

قيل له: فبماذا يوجد اليقين؟ قال: بطهارة القلب، لأن اليقين طاهر، فيطهر مكانه ومستقره.

قيل له: وما طهارته؟ قال: ترك ما اضطرب القلب عليه ورابك منه تورعاً، دقّ أو جلّ، ثم تطهره من التعلق بالشهوات، والاشتغال بها، فإذا أنت فعلت ذلك صقلت قلبك، فصار لك مرآة بالتورع؛ فكلما تفكرت شيئاً من أمر الآخرة، تمثل ذلك في مرآتك، حتى تصير الآخرة لك معاينة، فإذا منعت قلبك عن حريق الشهوات، كما تصون مرآتك عن حرارة أنفاسك، تمثل في قلبك الملكوت، حتى يصير أمر السموات إلى العرش لك معاينة، تبصره بعيني قلبك، كأنك تنظر إليه، كما قال حارثة رضي الله عنه: يا رسول الله، كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة كيف يتزاورون، وإلى أهل النار كيف يتعاوون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عرفت فألزم. عبد نوّر الله الإيمان في قلبه. فإذا صنت قلبك فصنه بعد ما ذكرنا عن النظر إلى نفسك إعجاباً وفرحاً، بالغطاء لها انقطعت الأسباب منك، وصفاً لك طريقك إلى الله عز وجل بلا غبار ولا غيم، فلا يغان على قلبك، فإذا أصاب قلبك الغين استغفرت، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم مائة مرة. وهذا الغين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس كما

يجده من بعده فيما نعلمه، فليس نراه من طريق التخليط، ولا من طريق العيب، فقد كان قلبه أطهر، وشأن أمره أعظم، وأجل من أن يظن به.

ولهذا الباب تفسير أوضح من هذا، نبينه في آخر هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، في صفة القلب وخلقته وشرح اليقين ماهو

أردنا أن نستتم ذكر النفس ورياضتها عدنا[1] إلى ذكر رياضة النفس. ألا ترى أن البازي كيف كان نفاره من الآدميين في الجبال الشامخات، فلما ربّ وأمسك على التربية، أنس بصاحبه، وأخذت التربية بقلبه، واعتاد الكون معه، فنزع عن النفار، وترك همّ الطيران، واطمأن إلى صاحبه، حتى إذا أرسله وحثه على الطيران طار، فأصاد وأمسك عليه صيده، تحرياً لموافقة مولاه، ثم إن دعاه من الطيران رجع، وآثر هواه على هوى موافقة نفسه، فأجابه منقضاً إلى حبله وسباقه[2]؛ أفلا يحق على مؤمن أبصر هذا أن يموت كمداً وعبرة وأسفاً على فوت هذا من نفسه، أن يكون طيره أسمع له وأطوع، وأشد تحرياً لموافقته، وألزم لنصيحته من العبد المؤمن لربه، ألا ترى إلى الدابة الخسيسة قيمتها قليلة، تؤخذ من الدواب وقد اعتادت الرعي حيثما شاءت، كيف يروضها الرائض على قبول السرج واللجام؟ وكيف يؤدبها حتى تأخذ السير؟ وكيف يؤدبها عند القناطر، وفي مواضع الجلبة، يريد أن يشيعها حتى لا تهاب هذه المواضع إذا بلغت؟ وكيف تفتح أذنيها عند المسير، وتميل يميناً وشمالاً، لا ينقلب عنانها، فإن لم تجد قنطرة فأهوى بعنانها، وثبت

---

[1] في الأصل: عندنا، تحريف.

[2] السباقان: قيدان في رجل الجارح من الطير من سير أو غيره.

إلى الجانب وثبة مخاطرة بنفسها، وإن إستقبلها جلبة لم تهب، ولم تترك سيرها، فتصير بحال تصلح للملك، فإن قوّمت قوّمت بالدنانير رفعة لها، لا بالدراهم، فتجلل وتبرقع، ويصفى لها العلف، وتربط في مربط الملك؛ فإنما بلغت هذا المبلغ، وسقط عنها جهد العمل وكده، وحمل أثقال الحمولات، وتخلصت من دبر الظهر، ومشقة الإستعمال، فإنها تركت هواها، ورفعت بالها عن نفسها، فإن خاطرت لم تبال، وإن أتعبت نفسها لم تمل، وإن اقتضاها راكبها السير[1]والركض والوثب، إستفرغت مجهودها في إعطاء كل ما يبتغي منها، من غير جمح ولا حزن ولا تلكؤ ولا شمس ولا كسل، ولا تركت أدبها، وقد كانت قبل ذلك هملاً[2] في الرعي، تفعل ما هويت، فهي قريبة القيمة من أشكالها من الدواب، وإنما اختصها الملك وأطاب علفها، وصانها عن رؤية الناس، وجللها وعزلها عن الجهد والكد، بترك مراعيها وهواها ونشاطها، وأنسها بأشكالها، واحتمالها التعب في جنب مالكها، وإعطاء المجهود بالصدق من نفسها، ويقظة[3] قلبها، ونظرها بقلبها إلى راكبها، ولو كانت إذا راضها لم تنقد لمولاها، ولم تأخذ سيرها، ولم تؤدب بأدبه، فإن سيرها أبطأت في السير، وإن مال بعنانها امتنعت وشمست، وإن مدّها جمحت فمدّت به، وفي الموضع الذي كان يريد السير منها امتنعت من إعطاء مافيها من القوة، وفي الموضع الذي أراد منها الوقوف حرنت، فركبت هواها، فجاءت

---

[1] في الأصل: للسير. واقتضى يتعدى إلى مفعولين، تقول: اقتضاه دينه، كما في أساس البلاغة للزمخشري.

[2] أي مهملة متروكة سدى. وفي الأصل مهملاً. تحريف.

[3] في الأصل: ويفقه.

بالقوة التي امتنعت منها هناك في السير، فإن قهرها باللجام، فأمسكت عن الركض، لم تمسك من أجل مولاها، ولكنها أمسكت من كبح اللجام، والألم الذي خلص إلى كبوحيتها، فأشفقت على فيها وأسنانها ولسانها وحنكها، فتركت حينئذ هواها، فجعلت تدور ولا تستقر، لأنها لم تسخ نفسها الدنيئة بطاعة راكبها، ومع ذلك تبول وتروث في مكانها، وتبرك مكانها، فإن إستقبلها جلبة نفرت، وتركت سيرها، فرجعت قهقري، فربما كانت من خلفها بئر أو جرف تتردى فيها، وتنكسر وتقتل نفسها، فهذه دابة خسيسة، فيها أخلاق السوء، لا تصلح للملك. وإنما تصلح للحمولة، فتراها الشهر والدهر موكفة تحت الحمولة، فمرة مهزولة، ومرة دبرة جائعة، في عنف وسير وكد عمل، وهي دابة من الدواب؛ فكذلك يصير العبد إذا راض نفسه بترك الشهوات، وقطع الأسباب، وانقطع عن اللذات، ومجاهدة الهوى، وامتناعه عما يريد، حتى تذل وتنقمع، فحينئذ ينقاد القلب والعقل، وتستقيم في سيرها على حد ما أمر به، ولا تهاب أحداً في أموره، ولا تخاف فيه لومة لائم، وإذا نابته النوائب خاطر بنفسه في ذات الله، وأذنه مصغية إلى مولاه، وقلبه شاخص إلى مشيئاته وإرادته، وإلى ما يبرز له من حجب الغيب، فيقبله بالطوع والهشاشة، والانطلاق إلى ما يستعمله به، وكيف ينقله من حال إلى حال، فإن رأى نصرته عدّ ذلك منه فضلاً ورحمة، وإن رأى خذلانه فزع إليه، وألقى نفسه بين يديه، صارخاً إليه، مستغيثاً به، فهو ولي من أوليائه، رفع باله عن نفسه، فرمى بها إلى ربها، فقال: أنت ربي، وأنت خلقتني لما تشاء، لا لما أشاء، ولا علم لي بشأني، وبما فعلت بي، ووجدتك أراف وأرحم بي مني بنفسي،

فرفعت بالي عن نفسي، وألقيت بيدي إليك مسلماً، فأقبلني، فإنك قد بينت في تنزيلك: "ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى[1]"، قد ألقيت الخلق وراء ظهري، فنظري إليك، وقطعت الأسباب، فتعلقي بك، والله تبارك وتعالى قائم عليه، يرعاه ويكلؤه، ويؤيده وينصره، ويقر عينه، والعبد مشغول بربه، ينظر إلى ملكه، وينصر حقوقه، ويحفظ حدوده، ويعظم أموره، ويذب عن دينه مالا يجمل، ويدعو عباده، فهو وليه ورب العزة وليه وهذا شأنه حتى يلقاه.

وبيان صفة هذا العبد موجود في الآثار. حدثنا إسماعيل بن نصر، قال: حدثنا أبو المنذر القطعي، قال: حدثنا عبدالواحد بن حمزة، عن مولى عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن الله تبارك وتعالى. وحدثنا إبراهيم بن المستمر البصري، قال: حدثنا أبو عامر العقدي، قال: حدثنا عبدالرحمن بن ميمون مولى عروة، عن عروة، عن عائشة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2]. قال: حدثني جبريل عن الله عز وجل- دخل حديث بعضهم في بعض- أنه قال: "ما تقرب إليّ عبدي بمثل أداء فرائضي، وإن عبدي ليتقرب بالنوافل حتى أحبه، وما تقرب إلى عبدي بشيء من النوافل مثل النصح لي حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي به يسمع، وبصره الذي به يبصر، ويده التي بها يبطش، ورجله التي بها يمشي، ولسانه الذي به ينطق، وفؤاده الذي به يعقل". فما ظننا بعبد يعقل بالله، وينطق بالله،

---

[1] سورة ٣١، آية ٢٢.

[2] زاد في الأصل هنا: "عن جبريل"

ويسمع بالله، ويبصر بالله، ويبطش بالله، ويمشي بالله، كيف يكون سعيه وآثاره منقلبة في الدنيا.

قال له قائل: كيف يكون هذا؟ قال: هذا عبد قد يسره، وولى سياسته، وحفظه ورعايته، واستعمله، فكان في صنعه، قد أمات فيه الشهوات، ويسر عليه الصعاب، وبسط له النور، ومدّ له في الأسباب، وألهمه وفهمه، وصيره من أولى الألباب، فإن نطق نطق بحكمة، وإن أنصت أنصت بفكرة، وإن نظر نظر بعبرة، وإن مشى مشى بهيبة، وإن بطش بطش بغلبة، قد منع قلبه من التفكير، وسلب في الأمور التدبير. وهذا كله موجود تحققه في الكتاب والخبر.

فأما في الكتاب فشأن الخضر عليه السلام، حرق السفينة، وقتل الغلام، وأقام الجدار، فلو عمل في الظاهر ما قدر على ذلك؛ ثم قال في آخر أمره: "وما فعلته عن أمري[١]". فهذا من الله في الباطن، الذي يؤتيه من يشاء، وقد قال في ذكره له: "فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا، وعلمناه من لدنا علماً[٢]". فقد بين أن هذا له من طريق العلم الذي علمه ربه. وما ذكر من شأن ذي القرنين، فقال: "إنا مكنا له في الأرض، وآتيناه من كل شيء سببا، فأتبع سببا[٣]".

فأوتى العلم الذي لم يؤت غيره.

---

[١] سورة ١٨، آية ٨٢.

[٢] سورة ١٨، آية ٦٥.

[٣] سورة ١٨، آية ٨٥.

فإن قال قائل: فهل يجوز لأحد أن يفعل على ما يتراءي له في قلبه، أو يقتدى بالخضر عليه السلام فيما يبدو؟ قيل: لا، قد ختم الله تعالى بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة، ولم يبق في الأرض بعده إلا الملهمون والمحدثون. وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

قد كان في بني إسرائيل محدثون، فإن يك في أمتي أحد منهم فعمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكان ابن عباس رضي الله عنه يقرأ هذه الآية "وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ولا محدث". والنبي دون الرسول بدرجة، والمحدث دون النبي بدرجة، وللرسول درجة الرسالة، وللنبي درجة النبوة، وللمحدث درجة الحديث. وقد أحكم الله بهذا الإسلام الذي ارتضاه لنا ديناً على لسان الكتاب والسنة، ما ليس لأحد فيه إستبداد، ولا تجاوز ولا تقصير، إنما هو حفظ الحدود، وإتباع الأمر الجملة[1]؛ ثم الصديقون والملهمون والمحدثون أمور خارجة من الحدود والأحكام، وهو تدبير الله عز وجل وكلاءته، على ما ذكرناه بدءاً.

ولم نجيء بشأن ذكر الخضر ههنا لنطلق لمن بعده مثله، إنما أردنا أن تحقق أن لله عباداً يضع عندهم من مكنون العلم ماشاء، وأن لهم عنده من المنازل ما يتحقق عند من يفهم هذا، أن ذلك الذي قلنا كيف يكون، حتى به يسمع وبه يبصر، وبه ينطق، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يعقل.

---

[1] كذا في الأصل. ولعله: في الجملة، أو على الجملة.

فأما ما ذكر في الأخبار، حدثنا عمر بن أبي عمر، قال: حدثنا الربيع بن روح الحمصي، قال: حدثنا ابن عياش، عن ضمضم بن زرعة الحضرمي، عن شريح بن عبيد الحضرمي، عن عبدالله بن زيد، قال: قال لقمان عليه السلام: ألا إن يد الله تعالى على أفواه الحكماء، فلا ينطق أحد إلا بما هيأه الله له. وحدثنا أبو بكر بن سابق الأموي، قال: حدثنا عمر بن عبيد الطنافسي، عن الأعمش، قال: جاء رجل إلى عمر رضي الله عنه، قال: إن عليا شجنى. فقال لعلي: لم شججت هذا؟ قال: إني مررت به وهو مقاوم[1] إمرأة، فساءني مقامها، فصغيت لها، فسمعت ما كرهت، فشججته. فقال عمر رضي الله عنه: إن لله في الأرض عيوناً، وإن عليا من عيون الله. حدثنا عبدالجبار بن العلاء، قال: حدثنا سفيان، عن إسماعيل بن أبي خالد، سمعه من قيس بن أبي حازم، قال: عرض أبوبكر الصديق رضي الله عنه فرساً له، فقال غلام من الأنصار: إحملني عليها يا خليفة رسول الله، قال: لأن أحمل عليها غلاماً قد ركب الخيل بعدلته، أحب إليّ من أن[2]أحملك عليها.

فقال: لِمَ؟ فوالله أنا خير منك فارساً، ومن أبيك. قال المغيرة: فما ملكت نفسي أن أخذت برأسه فركبته، فأقبلا منخراه كأنهما عزلاء[3] مزادة. قال: فبلغ أبا بكر رضي الله عنه، أن ناساً من الأنصار يتوعدون المغيرة، فقال أبوبكر رضي الله عنه: بلغني أن ناساً من الأنصار يتوعدون

---

[1] قائم معها.

[2] زيادة ليست في الأصل.

[3] عزلاء المزادة: فمها، والجمع: العزالى. وفي الأصل: عذلا. تحريف.

المغيرة، والله لا يخرجوا[1] من ديارهم أسرع من أن أقيدهم بروعة الله.

حدثنا الجارود، عن يزيد بن هرون، عن حماد بن سلمة، عن هشام، عن عروة، عن أبيه، قال: أرسل أبو بكر الصديق خالد بن الوليد رضي الله عنهما إلى بني سليم، فجعلهم في الحضائر[2]، فحرقهم بالنار. قال عمر رضي الله عنه لأبي بكر رضي الله عنه: تستعمل رجلاً يعذب بعذاب الله؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: دعنا عنك يا عمر، والله لا أشيم سيفاً سله الله على المشركين، حتى يكون هو الذي يشيمه. وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ رضي الله عنه: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرفعة. والرفيع: السماء، والأرفعة: جماعة. فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أصاب فيهم[3] حكم الله عنده، وكان حكم بأن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتكون الغنيمة للمهاجرين دون الأنصار، وذلك في شأن بني قريظة.

حدثنا عبدالكريم بن عبدالله، عن علي بن الحسن، عن عبدالله، قال: أخبرني أبوبكر بن أبي مريم، حدثني راشد بن أبي راشد، قال: كنت مع خالد بن أبي معدان يوماً في بعض أسواق المدينة بحمص، فإذا نحن بنصراني أظهر الشرك بالله تعالى، فقال لي خالد: احسر عن ذراعيك، ثم قال لي: دق أنفه، قال راشد: فوجأت أنفه أن دققته، فانطلق النصراني

---

[1] في الأصل "يحوحوا"

[2] كذا في الأصل. ولعله: الحظائر، جمع حظيرة، وهي ما يدار حول الإبل وغيرها من خشب أو قصب، لحفظها من البرد والريح.

[3] في الأصل: فيكم.

فأستعدي علينا، فقال الوالي لخالد: ما حملك على ما صنعت؟ قال: أرغم الله أنفه وأنف من ثقل عليه تأديبنا له، إنه ليس لهم أن يظهروا شركاً ولا صليباً، فيصنع هذا بهم حتى يكفوا عن إظهار الشرك بالله عز وجل.

حدثنا عبدالله بن أبي زياد، قال: حدثنا سيار عن حفص بن سليمان، عن مالك بن دينار رحمه الله، قال: رأى عامر بن عبد قيس ذميا يظلم، فألقى رداءه فقال: والله أتحقر[1] ذمة وأنا حي؟ فأستنقذه.

فإذا فطمت نفسك عن حرارة الهوى، ووقعت حرارة الفطام على قلبك، فذابت تلك الأخلاط على قلبك، وطهر قلبك، وخرج صافياً، كما خرج الذهب الذي أحمى، فتهافت عنه تلك الأوساخ والأدناس، لأن للهوى على القلب أوساخاً وأدناساً، كما كان للمعاصي على القلب نكت سود، على ما جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء، فإذا عاد نكت أخرى، فإذا تاب ونزع صقل قلبه، ثم تلا: "كلا، بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون[2]". فإذا ذهبت المعصية بالتوبة ذهب سواده، وبقي دخانه، وذهب الشيطان، وبقي ظله، كما ذهب الليل وبقي سدفه وآثاره عند وجه الصبح؛ فإذا تاب عن المعصية وهو ممن يستعمل الهوى، فالهوى باق بعد، فهذا قلب قد تاب ولم ينزع، فلم يصقل قلبه بعد؛ وذلك أن المرآة المصقولة إذا نظرت فيها أرتك عن اليمين وعن الشمال، وخلفك وأمامك؛ فإذا قلبت بها إلى عين الشمس هكذا، فلاقى

---

[1] كذا في الأصل. ولعله: لا تخفر.

[2] سورة ٨٣، آية ١٤.

نور المرآة نور الشمس، وجدت الشمس تشرق في مكانك وفي بيتك؛ فكذلك إذا صقلت مرآتك، وهي قلبك، نظرت عنها إلى الجنة والنار، وإلى بهاء الحسنات، وإلى جمالها ورفعة مرتبتها، وإلى قبح السيئات، وإلى الدنيا والآخرة، وإذا نظرت فيها إلى تدبير خالقك، تراءى لك عجائب، وذلك النور الذي تجده عندك، إذا أقبلت بمرآتك إلى عين الشمس، ليس هو الشمس، إنما هو نور حدث من بينهما، فإذا صفا قلبك من الهوي، حينئذ تجد اليقين، لأن اليقين هو نور يحدث على قلبك من نور معرفتك، ونور إلهك الذي هو نور السموات والأرض ونور كل شيء، فإذا أقبلت على الله تبارك إسمه، أشرق القلب بالنور، فذلك اليقين؛ وإذا كان بالمرآة صدأ فقلب بها إلى عين الشمس، لم يشرق في البيت منه شمس، لأنه قد حال بين نور المرآة ونور الشمس ذلك الصدأ، فكذلك القلب إذا أقبلت على الله تعالى وعليه الهوى، لم يشرق بالنور الأعظم، لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة وبين النور الأعظم، وهو اليقين، فإذا ذهب الهوى، فنظرت له، تلاقى النوران، فأشرق في صدرك، فأبصرته عين قلبك، فصار يقيناً. واليقين في لغة العرب هو الشيء المستقر الثابت، تقول العرب: قد يقن الماء في الحفيرة.

قال له قائل: إشرح لنا صفة القلب.

قال: القلب بضعة من لحم، في جوف بضعة أخرى، وهو الفؤاد، ومعدن النور القلب، ومنه قيل خبز فئيد، لأنه في جوف الرماد الحار والجمر، فالبضعة الخارجة هي الفؤاد؛ وإنما سمي قلباً لأنه يتقلب، وله عينان وأذنان وباب، والصدر بيته، وإنما سمي صدراً لأن الأمور التي

تصدر عنه، فالنور الذي في القلب يعرف ربه، لأنه نوره، وهو حبة القلب، وإشتقاق الحب منه، لأنه وصل حبة قلبه، ومنه قوله عز وجل: "حبب إليكم الإيمان[١]"، أي أوصله إلى حبة القلوب، ثم قال تعالى: "وزينه في قلوبكم" ولم يقل في فؤادكم، ومما يحقق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتتكم أهل اليمن، هم ألين قلوباً، وأرق أفئدة، فوصف القلب باللين، والفؤاد بالرقة، فالنور إذا خرج من باب القلب أشرق في الصدر، فأبصر عين الفؤاد ذلك النور، فإذا فكر في الجنة أو النار، أو في شيء من أمور الآخرة، وقع لتلك الفكرة ظل على الصدر[٢]، فتمثل ذلك الشيء بين عيني القلب، فصار كأنه ينظر إليه، وإذا ذكر الرب تبارك وتعالى لم يقع لذكره ظل على الصدر، ولكنه يشرق النور، ويتلألأ النور في الصدر، حتى يكاد يغشى بصر القلب، لأن النور إنما أشرق في الصدر، لأنه نوره، فإذا ذكر الأشياء، فالأشياء مخلوقة، فوقع للأشياء ظل، وإذا ذكره تلألأ النور، ولم يقع في الصدر ظل، وهو بمنزلة قنديل معلق في البيت، فحائط البيت يشرق عليه نور الصباح، فإذا رفعت يداً أو شيئاً بين الحائط وبين المصباح، وقع لذلك الشيء على الحائط ظل، وتمثل ذلك الشيء، فإذا رفعت بين المصباح وبين الحائط مصباحاً[٣] آخر، ازداد ذلك إشراقاً وضياء، ولم يتمثل على الحائط صورة، ولا وقع ظل، فهذا شأن القلب.

---

[١] سورة ٤٩، آية ٧.

[٢] في الأصل: "الصد"

[٣] في الأصل: "مصباح"

فإذا حمي القلب بالفطام من الهوي فصفا، صار كالذهب يخرج من النار، فحينئذ يحك بالحجر، اختباراً لجودته: وذلك أن الذهب لإجتماعه وكثرته، أراك لون حمرته، بقوة بعضه من بعض، وانضمام بعض إلى بعض، فإذا حككت منه شيئاً بحجر، وبقي بالحجر من ذلك شيء لطيف رقيق، تبين لك جودته أنه يريك في حال الضعف والرقة، ومن أية قواه أنه قوي الحمرة، وأنه جيد؛ وذلك الرديء المغشوش يريك حمرته مادام كثير القدر، كثير الوزن، مجمع القوى، فإذا حككته بحجر، فبقي الذي على الحجر، رأيته أصفر، فعرفت أنه ليس بجيدٍ.

فكذلك القلب لا يتبين ما فيه حتى يفطم، ويريك أنه قد صفا بالفطام، فحينئذ يحك بحجر البلوى، فيختبر سكونه بمن، وإلفه مع من، أبا لله سكونه ومعه ألفه، أم لعطائه سكن، ومع أحوال نفسه ألف؟

فالحك هو النقصان، فمن كان سكونه به، وإلفه معه، لم يتغير للنقصان، أعني نقصان العطاء، ولجزيله، لأنه للنقصان والتجزيل يبين إلى ما سكنت، وهل قطعت الهوى، فهذه منزلة عبادتك له بما هو أهله، وهو الذي يقال له: اعبد الله باليقين لا بالهوى، واليقين عقيب الهوى، فكل ما نقص من هذا ازداد من ذلك، فهما يتعاقبان أبداً. ويقال: الصبر صبران: صبر على الشدائد، وصبر على ما يدعوك إليه الهوى، طاعة كانت أو معصية، فإذا فطمت نفسك عن طاعة الهوى، حتى صار لك عادة ألا تطيع الهوى في شيء من الأشياء، وإن أبيح لك ذلك الشيء، إستنار قلبك باليقين، وهو نور مشرق في الصدر، وعينك تنظر إلى ذلك

النور، ونفسك يقظان[1] بقرب الله عز وجل، كما قال عامر بن عبد قيس رحمه الله: ما وقع بصري على شيء إلا رأيت الله أقرب منه. وروي عن محمد بن واسع رحمه الله تعالى نحو من ذلك، وإنما أدرك عامر هذه المنزلة، لأنه راضٍ نفسه حتى صار بحال- حكى عن نفسه أنه قال: وجدت الدنيا أربعة أشياء، فمازال يروض نفسه حتى أطاعه الهوى، حتى قيل له حيث يريد الشام: كيف تبكي على أهل مصر؟ قال: لأن بها إخواني، وبها كثرة تجاوب المؤذنين، وبها ظمأ[2] الهواجر. قيل له: فقد أذن لك، أفلا ترجع؟ قال: أكره أن ارتحل رحلة هوى.

وكما روي عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى، أن رجلاً قال لمعلمه: قد قطعت الهوى. قال: أتفرق بين النساء والدواء؟ قال: نعم.

قال: فأنت أوثقت الهوى ولم تقطعه.

وكما روي عن عيسى ابن مريم عليهما السلام: هل يستوي عندكم هذان: كف من تراب، وكف من ذهب، قالوا: لا. قال: فهما عندي سواء. فهذا قطع الهوى.

قال له قائل: اشرح لنا هذا. وكيف يستوي هذان في قلب؟

قال: إن الناس إنما فرقوا بينهما، وفضلوا الذهب على التراب بالهوى، لما رأوا منفعة الذهب، فضلوه من أجل المنفعة؟

---

[1] في الأصل: "يقفان". ولعل صوابه: يقظي.

[2] في الأصل: "فما"

فينبغي لمن أراد التخلص من هذا، أن يروض نفسه، حتى يرى بنور اليقين الأشياء كلها مستوية، بمعنى أنها خلق الله تعالى، ثم يرى المنازل التي أنزلها الله تعالى، فبإنزاله إياها بين لها تلك المنزلة موافقة له، ولو شاء جعل المنفعة التي في الذهب، في الزجاج وفي الحجر، ولكان الذهب ساقط المنزلة عن القلوب. ألا ترى أن عمر رضي الله عنه أراد أن يتخذ الدراهم من جلود البقر.

فإنما ينبغي لك أن تفضل عندك شأن الدينار والدرهم، بما أنزل الله لا بهواك، ألا ترى لو أن رجلاً أتى سمرقند بعض هذه الكور التي تجوز فيها هذه الفلوس، كان للفلوس عنده قدر، إن افتقدها حزن، وإن وجدها فرح؛ فإذا تحول إلى كورة لا تجوز فيها تلك الفلوس، فلو رمى بها لم يبال؛ فهذا مما يدلك أن الذهب إنما عظم موقعه من القلوب لعظم منفعته، بأنه صار ثمناً للأشياء، فمن أجل ذلك بغض الله تعالى كثيراً من الناس من أجل أنهم رأوا منفعة الأشياء من الدينار والدرهم، لا من الله عز وجل.

فينبغي لك أن تروض نفسك وتفطمها عن هذه الأشياء، حتى يصفو قلبك، ويسير باليقين، حتى ترى الدينار والدرهم خلقين من خلق الله تعالى كسائر الخلق مبتدعاً، ثم تنزلهما بالمنزلة التي أنزلهما الله تعالى، فبإنزاله يفضلهما، ويرى المنفعة التي فيهما من خالقهما، فحينئذ يستوي عندك حالهما، في أنهما خلقان من خلق الله تعالى، فهذا عندنا معنى قول عيسى ابن مريم عليهما السلام.

فإذا غفلت عن النفس بعد رياضتها، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها مادامت الشهوات منها حية، والهوى قائماً، ألا ترى أن القوس إذا ترك إستعمالها وتعاهدها وعتقت، كيف يأخذ البيت الأسفل من البيت الأعلى، فكلما رميت بها سهماً أخطأ الغرض، كذلك النفس إذا تركتها حتى تقوى شهواتها، ويشتد حرها في الجوف، وتقوى بظلمة الهوى، أخذت من البيت الأعلى، وهو نور العقل ونور المعرفة ونور الروح ونور العلم، فتحرق بنيران الشهوات، من هذه الأنوار التي في القلب بقدر قوتها؛ وإذا قويت بنيران الشهوات ضعفت الأنوار، فيظلم الهوى على اليقين، فيتولد الشك على القلب من هذه الآفات، فتغلب على القلب هذه الآفات، فمن ههنا يصرع، فهذا هو القلب المصروع، والمأسور في يد هواها؛ قلما خرج منه[١-١] عمل من أعمال البر، ثم لم يصب الغرض، فوقعت رميته يميناً وشمالاً، وربما خرج منه فلم يبلغ الغرض لضعف القوس؛ وذلك أنه رمى عن قوس قد أصابتها الآفات والعلل؛ فكذلك آفة القلب الذي وصفنا، ربما أردت براً، مال بقلبك الهوى إلى الشهوات يميناً وشمالاً، حتى تحيد عن السبيل والسنة، وربما جاوزت الغرض، وربما ضعف قلبك، فعملت بغير نية، فلم يبلغ عملك إلى ربك، كما قصرت الرمية عن الغرض؛ أفلا ترى كيف تعالج القوس وتحمي حتى تلين، فإذا لانت سويت، حتى يرجع البيت الأعلى إلى مكانه، وإنما زال عن مكانه لأن البيت الأسفل لما قوي وصلب مد بالبيت الأعلى بفضل قوته؛ فكذلك النفس لما قويت وصلبت شهواتها، انتشرت وهاج هواها،

[١-١] في الأصل: كلما خرج من، وهو تحريف.

فأحرقت أنوار القلب، والقلب هو رطب بالأنوار، لأن النور هو من الله تعالى رحمة، والرحمة باردة، والقلب لين منقاد برطوبة تلك الأنوار، فإذا احترق النور صلب، القلب وقسا ويبس، فخف عن ذكر الله، ولهى عنه، فالمشروح صدره للإسلام، شرحه ربه "فهو على نور من ربه، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله" فمدت النفس آلتها، فصار في سلطانها، كما يحمى القوس حتى تلين، ويتخلى عن البيت الأول.

كذلك تراض النفس بأن تحمي، وهو أن يمنعها اللذات والشهوات، فتحزن، ويصيبها حرقات منع الشهوات في مصائبها، فبتلك الحرقات تذل وتنقمع، وتلين وتتخلى عن القلب، فيرجع القلب إلى مكانه بنور المعرفة ونور العقل ونور العلم ونور فوائد العطايا؛ فكلما منعت النفس شيئاً من هذه الشهوات، خلت عنه كما وصفنا؛ وكلما أعطيت النفس منيتها قويت، فصارت كالشجرة تثمر الحنظل والدفلى والمر والصبر والسموم القاتلة، فإن أردت ألا تنمو، فالتدبير فيما عقل العبد وفهمه، أن تحبس عنها الماء والسرقين والتراب الذي يلقي في أصله، حتى تيبس، فتصير جذعاً لا يثمر ولا يرجع عليك بالضرر؛ ثم لا يزال جذعاً يعترض بين عينيك، يشغلك عما سواه من الأشجار، فتشمل فيه ناراً، حتى يذهب شخصه من بين عينيك، فإذا هو قد ذهب أثره، وذهب ذكره.

وكذلك النفس: في التدبير أن تحبس عن النفس لذاتها وشهواتها، حتى تذهب ثمراتها من هذه السموم القاتلة، التي تميت قلبك في الدنيا، فتصير أعمى من العميان في الدنيا بصيراً في دين الله جل وعلا، فتقبل على مزبلة وهي الدنيا، وإنما هي قنطرة، تداولتك أيدي أسود وأبيض،

وهو الليل والنهار، حتى تؤديك إلى الخالق البارئ، المثيب المعاقب، فتعظم ماصغر الله، وتكرم من أهانه الله، وتدني من أقصاه الله، وتتعلق بمن لابد أن تفارقه، وتعمر ما أذن في خرابه؛ فإذا ذهب ثمراتها حبست عنها الفكرة فيها، والحديث عنها، والتذكر لها، حتى تيبس، ثم لا تزال تمنية شهواتها قائمة بينك وبين ربك، تفرح بالعطاء، وترضى بما تعطي به، وتروم مالم تعط، وترى نفسها في الأشياء؛ فهي تحجبك وتشغلك، حتى إذا منّ الله عليك بنور اليقين، فهي كالبرقة، كما تشعل شجرك[1]ناراً، فيذهب أثره وذكره، كذلك البرقة تحرق قائمة بنفسك، فيذهب أثرها وذكرها، ويبقى والها منفرداً به، فتكون الأشياء والأمور منك له وبه؛ فإذا أهملتها، وعجزت عن رياضتها، رجعت عليك بوبال عظيم، تعرض عن دار دعاك إليها رب العالمين، فقال تعالى: "والله يدعو إلى دار السلام[2]"، أمنك من آفاتها، فنسبها إلى إسمه السلام من بين الأسماء؛ يعلمك أن لسكانها السلامة من الآفات، محشوة بالنعم، مشحونة بالرضوان، وتلهى عنه باللعب والباطل؛ كفى بهذا عاراً، وأنت عبد سخر الله لك الخلق والخليقة لم تنل حتى تكون ماعشت قائماً بتربية حقوقه، ناظراً لأموره، معظماً لشأنه، ذاكراً له، ناشراً عنه الجميل، مشتاقاً بقلبك إلى لقائه؛ فأقبلت على تربيتك نفسك، وطلبك لها العز والجاه، والمنزلة من الخلق، والذكر على الألسنة؛ فهذه ربوبيته، فكيف تتفرغ للعبودية من طلب الربوبية؛ فاشتغلت عنه، فسهوت ولهوت عن ربك الكريم، الذي

---

[1] في الأصل: شجرتك.

[2] سورة ١٠، آية ٢٥.

خلقك فسواك فعدلك، وجمل صورتك، ودعاك فأعطاك وحباك، وأملك ومناك، ومن عظيم الخطر ومن ظلمة الكفر نجاك.

فهذا الذي وصفنا من تركك الشهوات، وتجنبك اللذات، ليس تحريم الذي أحل الله لك، ولكن تأديب[1] لنفسك، ورياضة لها، لأن هذه النعم إنما أمرت وأذن لك في تناولها، على الأدب الذي أدبت به على لسان الكتاب والرسول؛ فلما ساء أدبك لما فيه من أخلاط السوء التي مالت بك، لم تجد بداً من أن تعظمها مرة، حتى يجد القلب فراغاً إلى تعلم الأدب، فتأخذ طريقاً؛ فأما قلب معلق بالشهوات، مأسور باللذات، مقهور بالمنى، محبوس في سجن الهوى في بئر مظلم، فكيف يمكنه أن يتناول ما أعطى بإذن الله؛ فإن بعض من خفي عليه هذا النوع من العلم، كبر في صدره هذا، حتى ربما يفرح إلى الاحتجاج بقول الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم، ولا تعتدوا، إن الله لا يحب المعتدين[2]". وبقوله تعالى: "قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق[3]". فهذا من الاحتجاج تعنيف، ومن القول تحريف، لأنا لم نرد بهذا التحريم، ولكن أردنا تأديب النفس، حتى تأخذ الأدب، وتعلم كيف ينبغي أن تعمل في ذلك؛ ألا ترى إلى قوله جل وعلا: "إنما حرّم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والإثم والبغي بغير الحق[4]". فالبغي في الشيء الحلال حرام، والفخر حرام،

[1] في الأصل: تأديباً.
[2] سورة ٥، آية ٨٧.
[3] سورة ٧، آية ٣٢.
[4] سورة ٧، آية ٣٣.

والمباهاة حرام، والرياء حرام، والسرف حرام؛ فإنما أوتيت النفس هذا المنع من أجل أنها مالت إلى هذه الأشياء بقلبها، حتى فسد القلب، فلما رأيت النفس تتناول زينة الله والطيبات من الرزق، تريد بذلك تغنياً أو مباهاة أو رياء، علمت أنها خلطت حراماً بحرام، فضيعت الشكر، وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر؛ فلما رأيت سوء أدبها منعتها، حتى إذا ذلت وانقمعت، ورآني ربي مجاهداً في ذاته حق جهاده، هداني سبيله كما وعد تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين[1]". فصرت عنده بالمجاهدة محسناً فكان الله معي، ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تغلب، والحارس الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل؛ وقذف في القلب من النور نوراً عاجلاً في دار الدنيا، حتى يوصله إلى ثواب الآجل؛ ألا ترى إلى ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا قذف النور في قلب عبد انفسح وانشرح. قيل: يا رسول الله، فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإستعداد للموت قبل نزوله"؛ وإنما تجافى عن دار الغرور، بما قذف في قلبه من النور، فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتها وخدعها وخرابها، فغاب عن قلبه البغي والرياء والسمعة والمباهاة والفخر والخيلاء والحسد، لأن ذلك إنما كان أصله من تعظيمه الدنيا، وحلاوتها في قلبه، وحبه لها؛ وكان سبب نجاته من هذه الآفات برحمة الله رياضته هذه النفس، بمنع الشهوات منها.

وهذا في الآثار موجود قائم عن السلف، قد سارت به الركبان، من

---

[1] سورة ٢٩، آية ٦٩.

غير وجه؛ حدثنا محمد بن سهل، قال: حدثنا عمر بن منصور القيسي قال: حدثنا عبدالواحد بن زيد، عن الحسن، قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم: "ماذا تقولون في صاحب إذا أنتم أكرمتموه ورحمتموه وأطعمتموه وسقيتموه، دعاكم إلى شر غاية؛ وإذا أنتم أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه وأعطشتموه وأتعبتموه، دعاكم إلى خير غاية؟ قالوا: يا رسول الله، هذا شر صاحب في الأرض. قال: أي والذي بعثني بالحق، هي أنفسكم التي بين جنوبكم". وحدثنا صالح ابن محمد، قال: حدثنا أبو مقاتل، عن ابن عوف بن أبي راشد، عن الحسن رضي الله عنه، قال: بلغنا عن عيسى ابن مريم عليه الصلاه والسلام، قال في خطبته: "لاتضرين بكم الشهوات، فإنها أشد حراً في الجوف من النار، وأشد سكراً من الخمر، وإنكم لا تدركون ما تأملون، إلا بالصبر على ما تكرهون، ولا تنالون على ما تحبون، إلا بترك ما تشتهون".

حدثنا عمر عن سهل بن تمام، عن عمار بن منصور، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: طهروا قلوبكم بقلة الطعام تصفو، فترق وتصلب وتستعف"؛ فصفاؤها لله، وصلابتها في الدين، ورقتها للإخوان، واستعفافها في ذات الله تعالى.

فعالج قلبك حتى تعتقه من رق النفس بما وصفت؛ فإذا كان كذلك صفا قلبك من كدورة الأخلاق، وطهر من شهوة الآثام، فاستقر اليقين فيه، لأن اليقين لا يستقر حتى يرى مكاناً طاهراً، فتحيا القلوب وتصلب، لأنه من الله، قد قرب عبده واصطفاه، فيصير حينئذ ما غاب عن العين من أمور الآخرة، وأمور الملكوت، بعين قلبه، فهو كالبرق في ليلة ظلماء،

إذا برقت أبصرت بعين رأسك جميع ما غاب عنك في تلك الظلمة، من بئر أو جرف أو واد؛ أو ما ترى إلى حديث حارثة؟ حدثنا بذلك عبدالجبار بن العلاء، قال: حدثنا يوسف بن عطية، عن أنس، قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشي إذ استقبله شاب من الأنصار، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً بالله حقاً، قال: فأنظر ماتقول، فإن لكل قول حقيقة. قال: يا رسول الله، عزفت نفسي عن الدنيا، فأصهرت ليلى، وأظمأت نهاري، وكأني بعرش ربي بارزاً، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعاوون فيها. قال: عرفت فالزم. عبد نور الله الإيمان في قلبه. فقال: يا رسول الله، ادع الله لي بالشهادة. فدعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنودي يوماً في الخيل، وكان أول فارس استشهد، فبلغ أمه، فجاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، أخبرني عن ابني، إن يك في الجنة لم أبك عليه ولم أحزن، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت. قال: يا أم الحارث إنها ليست جنة، ولكن جنة في جنان؛ والحارث في الفردوس الأعلى. فرجعت وهي تضحك، وتقول: بخ بخ لك يا حارثة.

أفلا ترى أنه لما راض نفسه بأن قال: عزفت نفسي عن لذات الدنيا وشهواتها، فكأني أنظر إلى عرش ربي، فصارت الأمور الغائبة عنده معاينة، فعمل على الحقائق، وذهب الجهل، لأنه من نصب وتعب وعمل على المعاينة، زال الجهل عنه؛ ومن عمل على غير المعاينة، فهو في جهد عظيم، ومخاطرة عظيمة من قبل نفسه، إلا من عصم الله تعالى، لأنه

كالسائر في الظلمة: أحياناً يمشي، وأحياناً تنهشه حية، أو تلدغه عقرب، لا يبصر أين يضع قدمه، فهذه مخاطرة.

وأما جهده ثقل نفسه، فإنما ثقل أنه لم يعاين ما ثمرة هذه الأمور، هو بمنزلة رجل قيل له: احمل هذه الحمولة، فثقل عليه، فهو يجد ثقلها على فؤاده، فقيل له: احمل، ولك هذا الدينار، فاستمر بالحمولة، ونهض بأعباء ثقلها، فوجد خفة الحمولة، لأنه قوي القلب بما عاين من الدنيا، فقويت الأركان؛ أو قيل له أحمل هذه الحمولة، فثقل عليه، فعلاه بالسيف أو بشعله نار، فخلص إليه الخوف، فاحتمله، فوجده خفيفاً، لأن القلب قد عزم على احتماله، هرباً من السيف، أو قيل له أحمل هذه الحمولة، فثقل عليه، فقيل له: هذا الملك وأنت بعينه ينظر إليك، فوجد القلب قد انتقل عن حالته، إجلالاً للملك، فاستمر بالحمولة وقوي القلب، فإنما أدرك حمل هذه الحمولة بما عاين؛ فكذلك صاحب النفس قد عاين وشاهد قلبه، مما هو أكثر مما هاهنا من معاينة بصر الرأس

في دار الدنيا؛ فالقلب الموقن، صفته إذا تناول النعمة، فكأنما يتناولها من خالقه، فيأخذها بحياء، ومرة بحلاوة، ومرة بمهابة، ومرة بخوف؛ وإذا نزلت به بلية أبصر بنور يقينه إلى أموره، اختار له هذا، فظن به أحسن الظنون، لأنه أيقن أنه به أرحم منه بنفسه وأرأف، فأتمن ربه، واتهم نفسه، وقال: ربي أعلم بما اختار لك، فإن لم أصلح على اختياره وتقديره، لم أصلح على اختيارك وتقديرك أيتها النفس، واختيارك أنزل بي هذه البلية لإحدى خلال: إما تكفيراً لخطيئة استوجب بها هذا العذاب الأكبر، وإما رفع لي درجة يقربني إليه، وإما بينهما لأمر عظيم، أو

عصمني من ذنب، أو صرف عني داهية، أو عاجلني بعقوبة، لأن يرفع عني عقوبة الآخرة، ففي كل هذا خير. وأما العارف فإنه أجمله، فقال: هو مشيئة ربي، فمشيئته أجملى عندي وأعظم على قلبي، من نفسي وجميع جوارحي، وهؤلاء قوم ولهت قلوبهم لديه، فصارت أحكامه التي رضيها لهم منية قلوبهم، من إجلالهم له وإعظامهم.

عدنا إلى صفة الموقن:

وإذا ذكر الرزق وثق بالضمان، واطمأن بوفائه، فإن طلب طلبه مع سكون القلب، على حد ما أمر به، فإذا عرض له في ذلك شيء يكون فيه نقصان من حظه من الله تعالى، أعرض عنه، وتوجه إلى ربه، ينتظر من أين يفتح؛ والعارف تخلص من هذا كله، من الضمان والوفاء، وشغل عن طلب الرزق بالرزاق، فقلبه في البحر الأكبر، قد تعلق قلبه به، فإذا ذكر المنة غرق، وإذا ذكر العافية قلق، وإذا ذكر العافية قلق، وإذا ذكر حلول الأجل شرق، وإذا ذكر العيوب عرق، وإذا ذكر الرعاية والكلاءة ومق، وإذا رأى اللذات في الطاعة مئق، وإذا ذكره تئق، وإذا حن إليه واشتاق غرق في أثقال المنة، وعظمت آماله فيما لديه، وقلق من خوف زوال الإيمان، وشرق بغصته من حلول الأحزان، لطول الحبس عنه في دار الدنيا، وغرق من الحياء لما يرى من عظيم بره ولطفه، وجميل نظره، وحسن عوائده، ومن جميل صنائعه، ومن هرب النفس منه، وإعراضه عن حقوقه، وإظهار جفوته؛ وهو من عظيم عطفه عليه في كلاءته ورعايته، وإصطناعه إليه؛ ومئق لما يرى من فتح باب الدعة، وإكرامه بالطاعة، وتقريبه إياه بما يمكن له من الخدمة، وتئق من طول الغربة، وشدة

الحنين، فأنسه به، وسكونه إليه، وهو ملجؤه وثقته، وكهفه وسنده ورجاؤه، لا يتهمه على نفسه، ولا يسيء به الظن في نوائبه، بحسن معرفته بربه أنه غفور رحيم، ودود حميد مجيد، واحد صمد قيوم، كفيل وكيل، جواد كريم، حنان منان، حي لا يموت، لطيف بعباده، بر رحيم، شكور غفور، حليم عفو رءوف، معروف بالمعروف، محسن مفضل، فضله عظيم، إحسانه دائم، كرمه ظاهر، فاطمأن قلبه، كما وصفه ربه، فقال تعالى: "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب[1]". وقال الله تعالى: "الله نزل أحسن الحديث[2]".

إلى آخر الآية؛ فبين أن القشعريرة إنما هي من الخشية، فإذا ذكروه في كرمه وجوده، ورأفته ورحمته، لانت جلودهم وقلوبهم.

قال له قائل: فما بالنا نسمع هذا العلم فنفهمه ونعقله، ولا يبقى على القلب منه شيء؟ قال: لأن نيران الشهوات في الخوف قد التهبت، فهي نيران سود، مظلمة بالهوى، وهي مؤدية إلى نار الله الكبرى، فإذا التهبت ارتفع إلى القلب، وأحرق تلك الأنوار، فخلا القلب من الموعظة والعلم والذي عليه، وهي شبيهة بالنار التي تلهب حمرتها، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه، كلما ألقيت عليه قبضة من شيء، أو رششت عليه قليل ماء، انطفأ قليلاً ثم التهب، فكذلك صاحب الشهوة، إذا سمع الموعظة ذبل قلبه، وتخسفت نفسه، لما يصل إليه من الخوف، لأن الوعيد مما تنكسر به النفس، وتخمد شهواتها؛ ألا ترى أن الرجل يكون

(1) سورة ١٣، آية ٢٨.

(2) سورة ٣٩، آية ٢٣.

في لذة من لذات الدنيا ونشاط، فإذا بلغه وعيد من السلطان انكسر، وذهب نشاطه، فوعيد الله تعالى لو خلص إلى القلب، لكانت النفس والشهوات أشد انكساراً، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب، فهو صلب أبداً، فرح مرح، أشر بطر، فهو ينور بلهب، فإنما يطفأ بالماء الكثير الغالب، وهو العلم المؤدي إلى الخوف والوعيد، وليس يوجد هذا، فما الحيلة في ذلك؟ قال: إنا لا نعلم له حيلة، إلا أن يمنع من إلقاء الحطب عليه، فإنه متى زاده وقوداً اتقد، ونار والتهب وقوى، ومتى ما حبس عنه وقوده وخمد، حتى يصير رماداً، ويذهب حر التنور؛ كذلك ههنا، يحبس عنها الشهوات حتى تخمد، فتذهب فورتها والتهابها، فحينئذ تتخلص أنوار القلب، ويقوى ويعمل العقل عمله، ووجدنا في مبلغ علمنا أن الذي جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن النار تنادي يوم القيامة للمؤمن: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي؛ هذا معناه أن من عالج شهوات نفسه وهواه حتى يقهرها وتتخلص أنواره، ويقوى على قلبه، فقد أطفأ نور قلبه نيران شهواته المظلمة بالهوى، فهو النور يوم القيامة[1]، حتى يطفىء ذلك النور لهب النار عنه؛ ومن لم يعالج هذا من نفسه، وخرج من الدنيا مع هذه النيران سوداء مظلمة، خفت من ألا يقوى نوره على أن يطفىء لهب النيران على الصراط، لأنه لم يكن له نور على القلب يطفىء نيران شهواته، وخرجت منه أعمال البر محترقة، مخلطة برياء، لأن عامة ما يعمل من الطاعات إنما يعمل بهواه، وبما يخف عليه، وبما تنشط له النفس وتستحليه، لا ينظر إلى ما يختار الله

---

[1] جاءت هذه العبارة في الأصل هكذا: "فهو الذي يوم القيامة النور".

له، ولا يقبل علمه من ربه، إنما هو عامل لربه على التملك والاقتدار، والاختيار للأحوال، حتى ربما حمله ذلك على ترك الواجب، في جنب ما يتطوع به، وهذا موجود في الخلق، ترى الرجل يصلي بالليل، ويعق والديه، ويصوم النهار، ويسوء خلقه في شأن فطوره وسحوره، ويغتاب الناس، وينفق في أعمال البر، ويكتسب الشبهات، ويعود المرضي، وينقل الجنائز، ويؤذي المسلمين، ويطلب عوراتهم، ويود الأباعد، ويقطع الأرحام، فهذا رجل جاهل بربه، يعبده بالهوى، كلما هوى أمراً ركبه، وكذب فيما يقول إني أريد به الله. وإنما أتى فساد الخلق من إهمال النفس، وترك تأديبها، وقلة النظر في أمر الله تعالى، وجهلهم به، فلو عرفوه لاستراحوا من خدع النفس ودواهيها، لأن النفس إنما تطمع بمخادعة من يجهل ربه، فأما العلماء بالله، العارفون بالنفس، والشيطان أقل وأذل هناك أن يطمعها في خدعهم، لأن النفس إنما تظلم وتوسوس على القلب الشهواني، الذي قد أسره الهوى، وليس لنور الطاعة في القلب ما يغلب الهوى والشهوات، وإنما القوة الغالبة نور المعرفة، فمن استنارت معرفته كانت أموره على بينة ومعاينة، وذلك قوله تعالى: "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه[١]..." الآية، فوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم علاماته بالإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والإستعداد للموت قبل نزوله، ومنه قول حارثة: كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عرفت فألزم؛ من سرّه أن ينظر إلى عبد نوّر الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى هذا. وما

---

[١] سورة ٣٩، آية ٢٢.

جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل: علمني غرائب العلم.

قال: ما صنعت في رأس العلم؟ عرفت الرب؟ قال: نعم. قال: فما صنعت في حقه؟ قال: ما شاء الله. قال: هل عرفت الموت؟ قال: نعم. قال: فما أعددت له؟ قال: ماشاء الله. قال: اذهب فتعلم رأس العلم، ثم تعال أعلمك غرائب العلم. أفلا ترى أنه أمره بتعلم المعرفة، وسماه رأس العلم، فقد كان مسلماً، لأنه سأله أن يعلمه غرائب العلم، وأنه كان أخبر بتلك المعرفة؛ فلما سأله: هل عرفت الرب؟ أجابه عن معرفته، فلما سأله عن الإمتحان عما صنع في حقه، انقطع الرجل، فقال: ماشاء الله.

وما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حدثنا بذلك صالح بن محمد، قال: حدثنا القاسم العمري، عن عاصم بن عبدالله بن عامر بن ربيعه، عن أبيه: أن رجلاً أثنى على رجل عند عمر رضي الله عنه، فقال: صحبته في سفر؟ فقال: لا. قال: فأتمنته على شيء؟ قال: لا. قال: ويحك! لعلك رأيته يخفض ويرفع في المسجد.

ومثل ذلك عندنا مثل رجل رأى قوماً لم يعرفهم إلا بالوجوه هكذا، فتعرف أحوالهم، فوصف له رجلاً رجلاً، فقيل له: أما هذا الواحد فهو عالم لا يوجد له في الدنيا نظير، لتبحره في العلم، فعظم في عينه، وأخذ من قلبه شعبة؛ ثم قال له: هذا الرجل الآخر غني، لا يوجد له في الغنى نظير، فعظم في عينه، وأخذ من قلبه؛ ثم قيل له: وهذا الآخر كريم، لا يوجد له في الكرم نظير، فعظم في عينه، وأخذ من قلبه؛ وقيل له هذا

الآخر صانع الأشياء، لا يوجد له نظير في كل صناعة، فعظم في عينه، وأخذ من قلبه؛ قيل له: وهذا الآخر كفيل، يكفل الأرامل والأيتام، والضعفاء والفقراء، لا يوجد له نظير في رأفته ورحمته، فعظم في عينه، وأخذ بقلبه؛ ثم قيل له هذا الآخر شكور، عارف بالحقوق، إن أتيت أدنى شيء شكرك الكثير، ونشر عليك الجميل، فعظم في عينه، وأخذ من قلبه؛ ثم قيل له: ولهذا مملكة وعز، ومتعة وسلطان، قد ملك المشرق والمغرب، فعظم في عينه، وأخذ من قلبه؛ ثم قيل له:

وهذا قوى لا يطاق، له قوة ألف رجل من الرجال، فعظم في عينه، وأخذ من قلبه؛ فكل رجل منهم يوصف بواحدة من هذه الخصال، يأخذ من قلبك شعبة، ويعظم في عينك شأنه، وقبل ذلك لم يكونوا على قلبك هكذا؛ فلو أن هذه الخصال كلها جمعت في رجل واحد، لكان يعظم في عينك، ويكبر شأنه في صدرك، وتعظم منزلته عندك، ويأخذ بقلبك كله؛ فهذه الأشياء لو اجتمعت في رجل واحد كانت عارية، وهي عطاء من ربه، فعندئذ لا يكون من ملكه رأس إبرة وهو مخلوق يفنى ويبلى، فكيف بالعالم الذي لا يشبه علمه وغناه، وجوده وكرمه، وحلمه ومجده، وبهاؤه وجمالته، ورحمته ورأفته، وقوته وقدرته، وسلطانه وبصره بالأشياء، شيئاً مما عند الآدميين، وإنما اتفقا بالإسم، فأما الأشباه فتعالى ربنا رب العالمين عن أن يشبهه شيء من خلقه؛ فإذا عرفت هذا من ربك فكيف يكون على قلبك أموره، ووعده ووعيده، وضمانه وكفالته وقوته؟ فمن استنار قلبه بالمعرفة سكن قلبه واطمأن إلى ربه، ووثق بقوله، فعظمت منزلة المؤمنين عند الله تعالى، حين قبلوا الإيمان بالجملة، ثم استأداهم

الوفاء به عند النوائب، فمنهم من وفى، ومنهم من سقط، وبقي في الطريق، فأظلم عليه الهوى، ووقع من التخليط في الذنوب؛ ومنه ما حذر الله صفيه داود عليه السلام، فقال: "إنا جعلناك خليفة في الأرض، فأحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله[١]"؛ فالإنسان مطبوع على سبعة أخلاق: على الغضب، والرغبة، والرهبة، والشهوة، والغفلة، والشك، والشرك. فالخلق كلهم أقروا بأن الله تعالى فطر الناس عليها؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: "قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله، قل أفلا تذكرون. قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم؟ سيقولون لله. قل: أفلا تتقون؟ قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون؟ سيقولون لله. قل فأني تسحرون[٢]".

وقوله تعالى: "ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله، فأني يؤفكون[٣]". "ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد موتها؟ ليقولن الله؟ قل الحمدلله بل أكثرهم لا يعقلون[٤]". فأقروا له تعالى بالربوبية من غير عقل، ثم أشركوا به غيره في ملكه، فقال تعالى: "وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم

---

[١] سورة ٣٨، آية ٢٦.

[٢] سورة ٢٣، آية (٨٤– ٨٩). وقد وضع المؤلف سهواً مكان الآية الأولى قوله تعالى: "قل من يرزقكم من السماء والأرض؟ أم من يملك السمع والأبصار؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي؟ ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون الله. فقل: أفلا تتقون؟".

[٣] سورة ٢٩، آية ٦١.

[٤] سورة ٢٩ آية ٩٣.

مشركون[٥]" فأقروا لله بالربوبية، ثم أشركوا فيه لأنهم نطقوا من قلب مظلم، وقد ضرب الله تعالى لهم مثلاً في كتابه فقال: "يكاد البرق يخطف أبصارهم، كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا[١]". وقال: "كمثل الذي استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون[٢]". فأقروا له بالربوبية، ثم غفلوا عنه ونسوه، فهذا الشك والشرك والغفلة فيه.

ثم الغضب مركب فيه، والشهوة كذلك، فالرغبة في النفس من قبل النفس، والرهبة في النفس من أجل النفس، والخلق بهذه الصفة من مات منهم فإن جهنم موعدهم، لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم، فإنما قسمت على الأبواب هذه الأجزاء لهذه السبعة الأخلاق، فكل من غلب عليه خلق من هذه الأخلاق نسب إليه، وألقي في ذلك الباب، وعذب في ذلك الدرك. وما يصدق ذلك ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: للنار باب لا يدخل منه إلا من شفي غيظه بسخط الله تعالى، حدثنا بذلك أبي رحمه الله، قال: حدثنا عبدالله بن نافع الدينوري، عن إسماعيل بن شيبة الطائفي، عن ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: من منّ الله عليه من ولد آدم بالمعرفة، وجعل له نوراً يمشي به في الناس، كان[٣] له ولياً، يخرجه من الظلمات إلى النور، وكان ميتاً فأحياه. ووصف

---

[٥] سورة ١٢ آية ١٠٦.

[١] سورة ٢، آية ٢٠.

[٢] سورة ٢، آية ١٧.

[٣] في الأصل: فكان.

ذلك كله في كتابه، فقال تعالى: "أو من كان ميتاً فأحييناه[٤]"، وقال: "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور[١]". وقال: "ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور[٢]". وقال: "مثل نوره كمشكاة فيها مصباح[٣]". فوصفه إلى آخر الآية. وقال: "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام[٤]". ثم قال: "لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون[٥]"، إخباراً عن المنة عليهم. فلما استنار قلب المؤمن بالنور الذي أعطى، نطق لسانه بتوحيده، وعرف قلبه ربه، وصدقه في وعده ووعيده، فأستسلم وألقى يديه، فذهب عن الشك والشرك والغفلة، فتيقظ وأيقن وأخلص؛ وبدَّل بالغفلة اليقظة، وبدّل بالشك اليقين، وبدل بالشرك الإخلاص، وبقيت فيه الشهوة والرغبة والرهبة والغضب، وكلما ازداد العبد في إيمانه نوراً وقوة وشعاعاً، تنقص من الغضب والشهوة، والرغبة والرهبة، فكل مؤمن على قدر إيمانه يكون من هذه السبعة باقية فيه، يغفل عن ربه، وتعتريه الظلمة كالشك وليس بالشك، ولكنه ريبة القلب واضطرابه وتغيره، كالشرك وليس بشرك، ولكنه شرك الأسباب الموضوعة، فيتعلق بالأسباب، يكون اعتماد القلب على الأسباب، وينسى ربه، لا لأنه يجحده، إذا ذكر أقر، وإذا نسي تعلق قلبه بالأسبابن

---

[٤] سورة ٦، آية ١٢٢.

[١] سورة ٢، آية ٢٥٧.

[٢] سورة ٢٤، آية ٤٠.

[٣] سورة ٢٤، آية ٣٥.

[٤] سورة ٦، آية ١٢٥.

[٥] سورة ٦، آية ١٢٧.

حتى يفتتن؛ والأسباب مثل الحصن يدخل فيه الخائف، والسلاح يأخذه فيتقوى، فيكون اعتماده على الحصن والسلاح، وينسى ربه، وكالدواء ليستشفى به، فينسى ربه في شأن الرزق، يطلب ويسعى ويغفل عن ربه حتى يفتتن، فإذا ذكر لا يعمل فيه ذلك الذكر، وجميع الخلق أسباب، القلب حائل بينه وبين رؤيته ذلك من ربه، وهو سبب المعصية والفتنة؛ فإذا استنارت معرفته فعملت، كانت كالشمس تشرق في قلبه بالأسحار، ولا ظلمة ولا غبار، فصارت الأشياء له معاينة، فتخلص القلب حينئذ من الأسباب، إلى ولي الأسباب، ومنه قول عيسى بن مريم عليه السلام: لو أن رجلاً مستكمل الإيمان يهز جبلاً لزال عن مكانه؛ ومنه قوله لبعض الحواريين حين أراد أن يلحقه في البحر، فيمشي على الماء معه: هات يدك يا قصير الإيمان، ثم مشي به في موج البحر، فقال: خفت الموج؟ قال: نعم. قال: ألا خفت رب الموج؟ ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أحب لله، وأبغض لله، ومنع لله، وأعطى لله، ونصح لله، فقد استكمل الإيمان؛ ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لسلمان رضي الله عنه: قل اللهم إني اسألك صحة في إيمان، وإيماناً في حسن خلق، ونجاحاً يتبعه فلاح، ومغفرة منك ورحمة ورضواناً.

وفي هذا الباب حديث كثير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ومنه قول الحسن البصري رحمة الله عليه في تفسير قوله تعالى: "ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه"، قال: غير مستكمل الإيمان: "فأولئك لهم الدرجات العلى، جنات عدن تجري من تحتها

الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء من تزكى[١]".

أي تطهر من الأسباب، وهو هذه الأخلاق السبعة، فهم أهل الدرجات العلى في جنات عدن، وهم الصديقون رفقاء الأنبياء؛ فمن ههنا قالوا بزيادة الإيمان، سموا هذا النور الذي يزداد العبد بربه معرفة به إيماناً، كالشمس شعاعها الذي يقع بالأرض تسميه شمساً، والذي يطلع في المجرى تسميه شمساً، لأن هذا منه، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من أمتي رجالاً حال بينهم العرى عن أن يأتوا مصلاهم، يمنعهم إيمانهم أن يسألوا الناس، منهم أويس القرني، وفرات بن حباب العجلي، رحمة الله عليهما. حدثنا الفضل بن محمد قال: حدثنا زهير بن حرب، حدثنا ابن مهدي وعبدالله بن الأشعث، عن سوار، عن محارب بن دثار، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك؛ فسموا هذا النور إيماناً، وذلك جائز في اللغة؛ وعلى هذا تأويل قول الحسن رحمه الله "غير مستكمل الإيمان"، أي لم يستكمل النور؛ فوجدنا التبحر في العلم بالله بحسن المعرفة يملأ القلب نوراً، يحرق ذلك النور جميع نيران النفس، من الشهوات الهاوية في القلب إلى الإخلاد والتمكث، فلذلك تراه في الآخرة يطفىء نوره نيران الآخرة والتمكث على الجسر، وهكذا صفة المؤمن يومئذ على الجسر. قلنا: كان أصل هذا الأمر، والمدار عليه، هو الإيمان به، وحسن المعرفة له، كما وصفنا، من السكون والطمأنينة، والثقة به، والركون إليه، على قدر ضعف اليقين وقوته، كما ذكرنا بدياً؛ امتحن الله تعالى بفرائضه وحدوده وأمره ونهيه، ونهاهم عن أشياء، وشهوات تلك الأشياء مركبة فيهم، وأمرهم بأمور، فثقل عليهم إتيانها، وجد لهم حدوداً، فمد لهم هواهم إلى مجاوزتها، وإلى التقصير فيها، والقعود عن

---

[١] سورة ٢٠، آية ٧٥، ٧٦.

إتمامها، ليظهر ما في ضمائرهم، ومقادير إيمانهم في الضعف والقوة، لخلقه من في السموات والأرض والملائكة وسائر الخلق، لكي إذا رفع بعضهم فوق بعض في الدرجات، لم ير أحد من خلقه من الملائكة والسموات والأرض وسائر الخلق أحكامه بين عباده إلا جميلاً؛ وابتلاهم بالطاعة، وبالحدود والفرائض، والأمر والنهي، فقال: "ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم[1]". أي يستخرج أسرار ضمائرهم، حتى يكون عذري يوم القيامة قائماً، وأمري ظاهراً، فلا يرى خلقي مني ذلك إلا حسناً جميلاً ومعروفاً؛ فلما علم أنهم يضيعون حدوده وفرائضه، من أجل الشهوات المركبة فيهم، وضعف الإيمان، وقلة اليقين، علم أنه سيكون من هذا الخلق أمور تحدث أسبابها من الهوى والشهوات، وقلة المعرفة بأمور ربه، وضعف اليقين وزجرهم عن أشياء رحمة منه عليهم، وتعظيماً لهم، لأن من آمن ودخل في ولايته وحزبه صار سعيداً بجنته، فحرم دماءهم وأموالهم وأعراضهم، بعضهم على بعض، وحرم عليهم الغيبة، والبهتان، والزور، والتجسس، وسوء الظن، وهتك الستر، وطلب العورات، والجهر بالسوء والأذى، وحرم عليهم الزنا، لأن فيه الغيرة والأذى بعضاً لبعض، وحرم الخمر، لأن فيها الأذى وتلف النفس وإهلاكها، وحرم الربا، ودل على المواساة والتقارض، وقال: "ولا تنسوا الفضل[2] بينكم"؛ ففي ذلك دليل على حضهم، ومنع بعضهم من بعض، وحضهم على البر بعضهم لبعض، إبقاء عليهم، ومرفقاً لهم، لأنهم أهل خاصته وصفوته، ودعاهم إلى الزكاة ليطهر أموالهم، ودعاهم إلى الجمعة، ليطهر خطاياهم، ودعاهم إلى الحجّ، ليعتق رقابهم من

---

[1] سورة ٤٧، آية ٣١.

[2] سورة ٢، آية ٢٣٧.

عظائم الإثم، ودعاهم إلى صلة الأرحام، ليرحم بعضهم بعضاً فيرحمهم، ودعاهم إلى الجهاد، ليتخذ منهم شهداء، ويرفعهم في الدرجات، ثم دعاهم إلى نوع آخر من العبادة، ودعاهم إلى بر الوالدين، ليقوم بشكرهما من أجل التربية، لأنه يبغض الكفور، ودعاهم إلى الإحسان إلى الجار، وإلى ذي القربى، وإلى الصاحب بالجنب، وإلى الضيف والمملوك؛ وكل هؤلاء أهل حقوق؛ ودعاهم إلى الإحسان إليهم، ليكون ذلك شكراً لهم؛ فهذه الأشياء كلها عبادة تعبدهم بها.

فأما أصل الأمر، فهو ما وصفته لك في أول الكتاب، أنه دعاهم إلى أحكام المعرفة، حتى يسكنوا إليه، فقلب العبد من قبل أن يؤمن أغلف، وللقلب عين وآذان، فإذا كان العبد ممن خلقه الله تعالى للرحمة، وسبقت له منه الحسنى، جعل له ذلك النور كما نطق به الكتاب، فقال: "أو من كان ميتاً فأحييناه[١]". أي بذلك النور؛ وهو قوله: "وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس[٢]". ولا نرى ذلك النور إلا ما جاءت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "إن الله إذا خلق الخلق في ظلمة، ثم رش عليهم من نوره، فقد علم من يصيبه ومن يخطئه، ثم أخرجهم يوم الميثاق بيضاً وسوداً، ثم استنطقهم يومئذ، فبلغنا عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: فأقروا له بالربوبية، طوعاً وكرهاً وتقية، فذلك قوله تعالى: "وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً[٣]"، حدثنا بذلك عن ابن عمر، وعن[٤] أسباط، عن السدى، عن أبي صالح، وأبي مالك، عن ابن عباس. ثم قال

---

[١] سورة ٦، آية ١٢٢.

[٢] سورة ٦، آية ١٢٢.

[٣] سورة ٣، آية ٨٣.

[٤] في الأصل: وعلى. تحريف.

تعالى: "ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور[٥]". وقال: "أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه[١]". فلما حيي القلب بذلك النور، صار سميعاً بصيراً؛ وروي عن الحسن رحمة الله عليه تفسير هذه الآية: "وتنذر به قوماً لدا[٢]". قال: صم آذان القلوب، وعلى تأويل قوله تعالى عندنا: "وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعوا، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون[٣]".

وقال تعالى: "لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين[٤]". فالحي هو المؤمن، فلما صار قلب هذا العبد منوراً بما رحمه الله، وقسم له في سابق علمه، صار القلب بلا غلاف، وأذن له ربه بالإيمان به، قال تعالى: "وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله[٥]"، فذكر ههنا الإذن للنفس، ثم ذكر القلب، فقال: "حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان[٦]". فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل، وذكر فعل النفس أنها قد آمنت، وبماذا آمنت؛ فخرج القلب من الغلاف، كسحابة انقشعت عن شمس، فاستنار، وسمع عن الله تعالى، وأبصر الغيب، فصار مجتبي من أهل جباية الله تعالى؛ وذلك قوله عز وجل: "هو اجتباكم[٧]". وصار موسوماً بسمة الله، وهو ذلك النور الذي أصابه، فلما أهينت النفس، وانقادت للقلب، قبل القلب ما سمع عن الله، وأبصر

[٥] سورة ٢٤، آية ٤٠.
[١] سورة ٣٩، آية ٢٢.
[٢] سورة ١٩، آية ٩٧.
[٣] سورة ٧، آية ١٩٨.
[٤] سورة ٣٦، آية ٧٠.
[٥] سورة ١٠، آية ١٠٠.
[٦] سورة ٤٩، آية ٧.
[٧] سورة ٢٢، آية ٧٨.

بالغيب، وعقله وعزم عليه، صار موسوماً بسمة الله ظاهراً وباطناً، فقيل هذا مؤمن، وهذا مسلم، لأنه قد آمن، ولأنه قد أسلم وجهه إلى الله، ومن أسلم الوجه إليه، فقد أسلم إليه بكله، لأن الوجه إسم جامع؛ ألا ترى أنك تقول في اللغة للسائرين بين الناس: رأيت وجوهاً كثيرة، فدخل فيه البدن كله، والمؤمن إذا آمن وقبل أمره، فإنه يعمل على تسليم نفسه إليه، لأن إيمانه إنما آمن بأنه ربه، فرقبته له، وجميع ما ملكت يمينه له، فقد سلم إليه نفسه وملك يمينه، فهو المسلم، قال تعالى: "هو سماكم المسلمين من قبل[1]": أي في اللوح المحفوظ.

"وفي هذا": يعني في القرآن. "ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس": أي إذا جاءت الأنبياء، فسئلوا عن تبليغ الرسالة، فأدعوا البلاغ، فأنكرت الأمم، وقالوا: لم تبلغنا رسلك أمرك، فنسلم أنفسنا وملك يميننا لك، ونأتمر بأمرك، فأنتم أهل تسميتي، الذين[2] سميتكم مسلمين، بأنكم قد سلمتم إليّ أنفسكم، فيشهد لكم بذلك الرسول الذي بعثته بالمقام المحمود، الذي يغبطه الأولون والآخرون، فبلغنا في الحديث: "وتشهدون أنتم لرسلي على أممها التي لم تسلم لي نفسها، فبهذا صرتم شهداء رسلي، وحجتي على خلقي".

فلما فتح القلب عينه أبصر وسمع لما حبب إليه الإيمان، أي وصل إلى حبه قلبه، وتزين ذلك في قلبه، انقاد لربه، ألقى بيديه إلى ربه سلماً، جاءت النفس بظلمها وظلمتها، وهي الهوى، فوقفت بين يدي القلب، صار على القلب كالغشاء أو كالسحابة المظلمة، فقيل غفلة[3]، والأول كانت غلفة[4]، فلما ذهبت

---

[1] سورة ٢٢، آية ٧٨.

[2] في الأصل: "الذي".

[3] في الأصل: غفيلة.

[4] في الأصل: غفلة.

الغلفة[٥]، حيث جاء النور، و[٦]بقي الهوى غفلة.

وقد نجد مثل هذا كثيراً في اللغة، يقال: جبذ وجذب، وكشر وشكر، وزرق ورزق؛ ومجر[١] ومرج، وحدج وجحد، وعلم وعمل، وغرف وغفر؛ ومثل هذا كثير، كلاهما مرجعهما إلى معنى واحد، ولكنهما اشتقا، فأستعمل هذا في نوع، وهذا في نوع، والآخر في نوع، وإن كان القالب[٢] يختلف على فعل وعفل[٣]، فإن الاشتقاق من معنى واحد، وخولف في القالب للإستعمال في نوعه، ليعرف بإختلاف القالب نوعه الذي عني به؛ وكذلك العقل أيضاً مثله، فقيل كشر إذا تبسم فبدت أسنانه؛ وإذا بدا لقلبه فرأى نعمه إليه من الأسباب شكر، لأن النعم قد بدت له، وكذلك قوله رزق، هذا[٤] فيما بدا إليه من الأسباب في مطعمه ومعاشه، وهذا فيما بدا إليه بالسبق، فيرزق به؛ وكذلك يقال في الحربة والمزراق، فكذلك الغفلة والغلفة، معناه عندنا أن الغلفة في وقت الكفر، والكفر هو الغطاء، فإذا ذهبت تلك الغلفة، ورفع الله الغطاء بمجيء النور، بقيت الغفلة، وهو الهوى قائماً فيما بينه وبين ربه، وكان للقلب حجابان: حجاب غطي ظلمة الكفر، فإذا ذهب الغطاء بقي الحجاب الآخر قائماً بينه وبين ربه تعالى، فهو الذي يغفله وينسيه، وهي التي تسمى غفلة؛ فلما صارت هذه النفس قائمة بظلمة هواها، وتلظى نيران شهواتها، بين

---

[٥] في الأصل: الغفلة.

[٦] كذا في الأصل. والواو زائدة.

[١] في الأصل: نجر.

[٢] في الأصل: الغالب. والمراد بالقالب: الميزان الصرفي.

[٣] في الأصل: فعل.

[٤] في الأصل: وهذا

قلب العبد وبين ربه، بعد أن أسلم له وانقاد، واعترف وقبل أمره، وعزم عليه، فهو يتعاصى عليه، وتستأديه الشهوات التي حرمت عليه، وتزلزله في شأن الرزق، وتوسوس إليه في نوائبها وأمورها، على تدبيرها المنكوس، وجهلها المظلم، والرب الرحيم الرءوف به، قد اختار له غير ذلك، مما هو أرفق به، وأبر له، وأزين به وأفضل، فقد شغل القلب النظر إلى ما يبدو له من تضاربه وتدبيره له، فحديث النفس وسوسة تدبيرها؛ وخيبته ومنته وأشقته وألهته، وأظلمت عليه الصدر، وهي سلاح عدوه الشيطان الرجيم، بها يخدعك ويوسوس لك، ويزين لك، ويعين هواك عليك، فلذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك. فلما كنت بهذه الحالة وقد ألقيت بيديك إلى الله سلماً، بما جعل في قلبك، أمرك بمجاهدته، فقال تعالى: "وجاهدوا في الله حق جهاده[١]". وأنبأك في كتابه شأن النفس والهوى، في آى كثيرة، منها ما ذكر عن قول يوسف عليه السلام حيث قال: "وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي[٢]". وحيث قال لداود عليه السلام: "إنا جعلناك خليفة في الأرض، فأحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله[٣]". وقال تعالى: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى[٤]"... الآية، فأمره بالمجاهدة حق المجاهدة، ثم أيدنا وشجعنا، فقال تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع

---

[١] سورة ٢٢، آية ٧٨.

[٢] سورة ١٢، آية ٥٣.

[٣] سورة ٣٨، آية ٢٦.

[٤] سورة ٧٩، آية ٤٠، ٤١.

المحسنين[1]". فسماه محسناً، ووعده أن يكون معه، ومن كان الله معه فهو المنصور لا يغلب؛ فوعدك على المجاهدة حق جهاده، أنه هو الذي يلي هدايتك سبيله. هذا ثوابه في العاجل؛ فكيف بثوابه في الآجل، إذا قدمت عليه غداً بالمجاهدة، وبثمرة المجاهدة، فإن الهداية صارت ثمرة المجاهدة، وبالهداية نلت ولاية الله تعالى، وبولاية الله نلت قربة الله وزلفاه. ثم قال تعالى: "هو اجتباكم[2]"، أي كلما جعلتك من أهل جبايتي، جعلت لك نوراً، وفتحت عيني قلبك، وفتحت أذني قلبك حتى عرفتني، فالآن جاهد في ذاتي هواك وشهوات نفسك، حتى يظهر انقيادك لأمري، ويعز ديني، وتعلو طاعتي. والمجاهدة على قالب المفاعلة، والمفاعلة لا تكون إلا من اثنين، إلا في النادر في الكلام، فأما العام فإنه من اثنين، فكأنه قال: "وجاهدوا في الله حق جهاده". وقال في آية أخرى: "واعتصموا بالله"، أي امتنع من شر النفس وحربها وعداوتها بالله تعالى، فكأن النفس عدوك، يرميك بسهم الشهوة، والهوى يقويها، وهي مظلمة، لا تستعين بالله عليك، وأنت ترميها بسهم المعرفة والعقل، وتستعين بالله تعالى عليها، فأنت المنصور، لأنك بالله تجاهدها، وهي تجاهدك لا بالله، فدلك ربك على الاعتصام منها به، ثم وعدك النصر، وشجعك على المجاهدة، فقال: "هو مولاكم": أي بلى نصرتكم، ثم

---

[1] سورة ٢٩، آية ٦٩.

[2] سورة ٢٢، آية ٧٨.

قال: "نعم المولى ونعم النصير[٣]": ينبئك وهو يملك كثرة النصرة ومتابعتها، فإذا تركت الاعتصام به خذلك، وخذلانه أن يمنع النصرة، فإذا منع النصرة، فجاهدت النفس، رمتك بسهام الشهوة والهوى، فرميتها بسهام المعرفة والعقل، لم تغلبها وغلبتك، لأن العلم والعقل والمعرفة في القلب، والهوى والشهوة خارج من القلب، قائم بين القلب وبين الرب، قد أظلم على سمعك وبصير عيني قلبك بغشاوته، فسجن ما في القلب، وغلب على القلب، فصار بمنزلة سراج في بيت، والسراج في الفخار، وعليها غطاء، فالبيت مظلم، فإذا انكشف الغطاء أبصر ما في البيت، مما يضر وينفع، فإذا جاهدت النفس، فاعتصامك به في ذلك، ذكرك إياه بأنك لا تستطيع دفع هذا إلا به، واستغناك به هو الذي يغنيك ويعنيك، فينصرك، وكيف لا يعينك وقد أمرك بأن تقول: "إياك نعبد وإياك نستعين[١]"، فيأمرك بالقول بهذا حتى تسأله ثم لا يجيبك! وقال تعالى: "أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء[٢]"، ثم لا يجيب ولا يكشف! تعالى الله عن ذلك، وإذا نسيته في ذلك الوقت، منع النصرة، لتركك ذكره، ولاقتدارك في الأمر، وكيف لا يعاقبك بمنع النصرة وقد نسيته، واقتدرت في أمره، وقد أمرك بأن تقول لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فمن اقتدر في أمره والأمر كله لله، والخلق لله، والقدرة لله، عوقب بأن يخذل، وعرف بالخذلان أن اقتداره كان خطأ، وأنه لا يقدر إلا به، وقال

---

[٣] سورة ٢٢، آية ٧٨.

[١] سورة ١، آية ٤٥.

[٢] سورة ٢٧، آية ٦٢.

تعالى: "إن ينصركم الله فلا غالب لكم؛ وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده[1]؟"

قال له قائل: فما النصرة؟ هل يمكن أن توصف؟

فقال: إن نور المعرفة في القلب، حتى يخرج إلى عين القلب، والهوى قائم على القلب حجاباً، فإذا جاهد العبد هذا الهوى حق المجاهدة، وحق جهاده هو غاية طاقة العبد، فنصرته أن يهديه سبيله، وهو أن يجعل له طريقاً من قلبه إليه، حتى يصير عين قلبه كأنه يراه من غير كيفية، وهو قول جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث سأله عن الإحسان، فقال: أن تعبد الله كأنك تراه. وقال في حديث آخر: إن أقواماً أيقنت قلوبهم، حتى كأنهم عبدوا الله على رؤية. وقال ابن عمر رضي الله عنهما في حديث: إنا كنا نتراءى[2] الله تعالى بين أعيننا في الطواف. حدثنا بذلك قتيبة، عن محمد بن منير، عن ابن أبي رواد، عن نافع، عن ابن عمر. وقال في حديث حارثة، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت؟ قال: مؤمناً حقاً.

فسأله عن الحقيقة، فقال: كأني أنظر إلى ربي على عرشه. هذا في رواية، حدثنا أبي، عن ابن أبي حبيش، عن عبدالعزيز بن أبي رواد.

وأما رواية ثابت عن أنس، فإنه روى: كأني أنظر إلى عرش ربي.

وهذا النوع في الآثار كثير. وإنما أدرك هذا حارثة بمجاهدات

---

[1] سورة ٣، آية ١٦٠.

[2] في الأصل: نترايا.

النفس؛ ألا ترى إلى قوله: عزفت نفسي عن شهوات الدنيا ولذاتها. فهذا قطع الهوى، فإذا قطعه هداه الله طريقه، فإذا نظر صار كأنه يراه بلا كيف؛ وهكذا وعد في كتابه، فقال: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا[١]".

فإذا هداه طريقه، لم يبق على قلبه حجاب للشهوة والهوى، لأنه فتح طريق قلبه إليه، فحينئذ يمكنه السكون إليه، ويطمئن القلب، ويثق بوعده، ويأتمنه على نفسه، ألا ترى إلى قول الرسول حيث حكى عنهم، قالوا: "وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا[٢]"...

الآية. فأخبروا أنهم إنما قدروا على التوكل، وهو تفويض أمر النفس إليه، بأنه هداهم لسبيله، فزال الحجاب، أعني الهوى والشهوات عن بصر القلب، فلم يبق بين يدي قلوبهم شيء يحجبهم، فصارت الأمور لهم كالمعاينة والمشاهدة. ألا ترى إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث وصف القلب، فقال: أبصر الغيب بالغيب فآمن، أو كما قال: فهذه نصرة الرب عز وجل.

فإذا تركت المجاهدة على الحقيقة منعك النصرة، فبقيت مخذولاً، مأسوراً في يدي الشهوة والهوى؛ فإذا صار القلب مأسوراً، فهو كملك مأسور في يد العدو، فإذن تعذر عليه الأعوان والجند، بل يذلون وينهزمون في الملاهي والأباطيل.

---

[١] سورة ٢٩، آية ٦٩.

[٢] سورة ١٤، آية ١٢.

قال له قائل: فكيف تكون المجاهدة على الحقيقة، إذ قال حق جهاده؟

فقال: اعتبر مجاهد الظاهر، وامتثل رجلين: أحدهما سلاحه تام، وحمل نفقة سنة، وتجهز بما يحتاج إليه، ورافق في الطريق رفقاء، وتبسط في مسيره، وطرب مع رفقائه، وتلذذ برؤية الكون، ولقاء الناس، وفرح بما نسب إليه من الجهاد والغزو، فقيل: هذا فلان الغازي، وطمعت نفسه في علو المرتبة، وارتفاع المنزلة عند الناس، واتخذ الجاه عندهم بذلك، ونال الكرامة في مسيره مقبلاً ومدبراً، وقلبه ههنا معلق بحب الدنيا وما خلف فيها؛ فهذا حاله في الطريق، حتى إذا بلغ المنتهى، فعلى وده أنه لا يلقى عدواً أبداً، ولا يسمع بذكره، فهو مقيم هناك مع حنين قلبه إلى شهواته ومناه التي خلفها وراء ظهره، حتى إذا لقى العدو، وجاهد مجاهدة مراوغ ليس له صدق القتال، يريد الروغان[1]، والنكص على عقبه، والهرب، حتى إذا انقضى الجهاد مرّ منصرفاً مسرعاً إلى شهواته التي حنّ إليها، وإلى مأواه الذي قد ألفه، ووطنه الذي قد استوطنه، قد سلم بنفسه، وسلم سلاحه ودوابه وعامة نفقته.

فجاء به كما ذهب به إلا النفقة، ما أنفق في مسيره، وما أنفق أيضاً فقد طرب إليه وتلذذ، وقضى مناه وشهواته بتلك النفقة؛ فهذا قد سمي فعله هذا جهاداً، فلم يكفر فعله، بل يعطي ثواب نفقته غداً، وثواب عنائه وتعبه، وأنه كثر سواد المسلمين وأعانهم وشايعهم. ورجل أخذته حمية

---

[1] في الأصل: "الروغات".

الإيمان، فغار لربه، فخرج يقصد محاربة عدو ربه، انتقاماً وتعظيماً على عدوه؛ أو رجل أيس من نفسه أن يخرج منه خير ينجو به، ورأى قبح مذاهبه، وسوء فعاله، فضاق به الأمر من شراهة نفسه، وقلة ضبطه لها، فاغتاظ منها، وحمى لربه على نفسه ومقتها، وهاله عظيم خطره[1] منها، فقدمها إلى العدو لتحاربه، لعله أن يرزق الشهادة، فيقتل ويغسل بدمه سائر جسده، حتى يلقى الله تعالى طاهراً من أقذار المعاصي. فهذا رجل خرج بهذه النية، أو بتلك النية التي غار بها لربه وحمى له، وهو أرفع درجة من هذا الذي برم بنفسه، وأراد التطهر، فلما لقي أحد هذين العدو، ونهمته في عامة مسيره المحاربة، إما غيرة لربه وحمية، وإما طلب تطهير لبدنه، والظفر بالشهادة، ظهر منه صدق اللقاء، فبادر وحارب وجاهد، فلم يلبث أن صار قتيلاً، وبالدماء مزمولاً، وتبددت أعضاؤه من الضرب والطعن، وتبدد سلاحه هكذا وهكذا من نهبة العدو، وأخذت دوابه وجميع ما هناك، وتقبل الله روحه، فجعله حياً، يرزقه عنده. فرحاً مستبشراً بما آتاه الله من فضله، كما وصف تعالى في تنزيله قصة الشهداء، فقال: "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء[2]"، إلى آخر الآية، فصار روحه مقبولاً، وصار عنده حياً فرحاً، مستبشراً مرزوقاً، من غير تعب ولا كد ولا عناء: فهذا حق الجهاد في طلب الجهاد؛ والأول رجل متحر للخير، طالب للثواب.

فكذلك جهاد النفس حق جهاده، أن يصدق اللقاء، فلا تسلم منه

---

[1] في الأصل: خطوه.

[2] سورة ٣، آية ١٦٩.

نفس ولا مال، فإذا أخذ في المجاهدة خلصت الهموم والأحزان إلى النفس، وانقطعت اللذات والشهوات، وتغير اللون، ونحل الجسم، وضعف البدن، وذهب الفرح والتسلط، واشتغل القلب، فضعف عن طلب الدنيا، قد[1] خلص النكص في المال، وتعطلت الأمور، ووجد المكاسب والأرباح، وأدبرت الدنيا عنه ببهجتها وزينتها، ولذاتها وعزها، وبهائها وملكها، وصافها[2] وخدعها، وأقبلت الآخرة بحقائقها، من البكاء والأحزان والأستكانة والصلاة والصيام والذكر والقرآن وأعمال البر، فشغل عن الأهل والولد، وعن التلذذ بقربهم، والأنس بهم، فصار الولد يتيماً، والأهل كالأرملة، والمسكن وحشاً، وتعطلت الأوقات التي كان يتلذذ فيها عند الغداء والعشاء، وتبدل بها جوعاً ويبساً، وبالضحك بكاء، وبالفرح حزناً، وبالسرور غموماً، وبالراحة نصباً، وبالنوم سهراً، وبالدعة تعباً وضيقاً، وبالغنى فقراً، وبالعز ذلاً، وبالمدح ذماً، والثناء طعناً وعيباً، فلم تسلم نفس ولا مال ولا جاه ولا قدر إلا ذهب كله، فهذا قتيل الله قد تبددت نفسه وشهواته ومناه، وصار هواه كالقتيل، فتخلص روحه عن هواه، فتقبل الله روحه، وأحيا قلبه، ورزقه من حيث لا يحتسب، ووصل بقلبه إلى إلهه، ففرح واستبشر، فقلبه عنده فرح مستبشر حي؛ فمن ههنا برز الصديق على الشهيد، لأن الشهيد احتسب بنفسه[3] على الله تعالى مرة واحدة، حتى قتل، والصديق يحتسب بنفسه، فلم يزل يقاتل هواه في

---

[1] كذا في الأصل. ولعله: وخلص.

[2] كذا بالأصل. ولعله: وصفوها.

[3] كذا في الأصل؛ والباء زائدة.

كل حركة حتى قتل الهوى، فخلص روحه وقلبه من الهوى، فهذا غاية الصدق، فسمي صديقاً، لأنه لم يبق في نفسه منازع، فصار البدن كله لربه مبذولاً بصدق منه، لا منازعة للهوى فيه، فكما صار الصديق عنده في الآخرة حياً مرزوقاً، صار بالصدق هاهناً في القلب به مرزوقاً، فرحاً مستبشراً بما آتاه الله من فضله، وكما صار الشهيد في الآخرة بعد أن وصل إلى النعمة يشتهي أن يرد إلى دار الدنيا، فيقتل فيه[1]، فصار منيته كذلك الصديق ماتت شهواته، فصارت منيته ونهمته في ذكره وعبادته، ومنه قوله تعالى في بعض الكتب: أيها الصديقون، تنعموا بذكرى، فإنه لكم في الدنيا نعيم، وفي الآخرة جزاء، حدثنا ابن أبي زياد، قال: حدثنا سيار، عن جعفر بن سليمان، عن مالك بن دينار رحمه الله تعالى، قال: قرأت في بعض الكتب: إن سرّك أن تحيا وتبلغ علم اليقين، فاحتل في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا، فإنه من يغلب شهوات الدنيا يفرق الشيطان من ظله. أفلا ترى أنه قال: إذا غلبت شهوات الدنيا حييت، لأن القلب إذا كان في ظلمة الهوى وغفلته، كان كالميت، وليس بالميت، لأن الميت قلب الكافر، وقلب الغافل كالميت، وليس به حياة، وقال: إذا فعلت هذا بلغت علم اليقين. فعلم اليقين أن تعبده سبحانه كأنك تراه، وكذلك وصف الله تعالى علم اليقين في تنزيله، فقال: "كلا لو تعلمون علم اليقين، لترون الجحيم[2]"، فأخبر تعالى: أن بعلم اليقين

---

[1] كذا في الأصل.

[2] سورة ١٠٢، آية ٥، ٦

ترى الأشياء "ثم لترونها": أي غداً، يعني الجحيم، "عين اليقين[٣]". فهذا حق الجهاد؛ وأما الآخر فإنه رجل أراد مجاهدة نفسه، فصام أياماً، ثم ترك، واجتنب بعض الشهوات، وتناول بعضاً، وحزن مرة، وفرح مرة أخرى، وبكى يوماً، وضحك أياماً، وصام وصلى، وساح مرة هكذا ومرة هكذا، وحمل على نفسه مؤناً كثيرة، وأتعب نفسه من طريق أنواع البر، من سهر الليل، والحج والجهاد، إلا أن ذلك كله بهواه عمل، حيث طرب ونشط، لا بمجاهدة، فهذا رجل يريد أن تسلم له نفسه وماله، ويقضي شهواته ومناه، ويكون مجاهداً، فهذا غير محقق جهاده، يعطي ثواب هذا التعب والعناء، ويؤجر عليه، ولكن لم يحارب الهوى في كل موطن حتى يقتله، فيكون قتيل الله تعالى، يقبل روحه، فيحييه، ويفرحه بنفسه، فالحرب من عندك، والنصر من عند الله العزيز الحكيم، فإذا نصرت قتلت هواك، وتخلص روحك منه، وقلبك، فقبله وحياه ونوره، وهداه واجتباه ورعاه.

قال: له قائل: وما الهوى؟

قال جوهرة النفس، لأن آدم عليه السلام خلق من تراب، فكان الهوى هو عنصره الذي فيه جوهريته الترابية، فكانت تلك الترابية متشبعة في النفس، وهو صفوة غذاء الأم، والهوى تنفس النفس، وهو كدورته. وأصل جوهريته، وهو مظلم، وهو قوة غذاء الأم، لأن التراب مظلم، وأمك إنما ربتك من اللبن، ومما أخرجت الأرض،فلذلك قيل في

---

[٣]سورة ١٠٢، آية ٧.

الحديث: لكل شيء نفس، ونفس النفس الهوى، فما دام الروح فيك، فأنت كون الروح، فإذا خرج الروح منك، صار وجهك وجميع جسدك كأنه ذرّ عليك التراب، لأنه لما زال الروح تغير الجسد إلى جنسيته الترابية، فقد علم شهوات الأرض ولداتها، وعرفها بذلك العنصر المنظلم المتشعب. هناك له ميلان، يهوى إلى جنسه، فسمي الهوى،لأنه تهوى به النفس، والنفس تهوى بالقلب، والقلب يهوى بالأركان إلى العقل، والعقل يهوى بجميع الجسد غداً إلى النار، فمن ههنا هواك يميل بك إلى نعيم الأرض، لأنه من جنسه، وإليه يحنّ، وله يألف، فهذه النفس مضطربة إذا حملت عليها أمر الله تعالى، كذلك الأرض لما حمل عليها الخلق اضطربت، فأسكنت بالجبال الرواسي حتى سكنت.

كذلك النفس، إذا اضطربت فإنما تسكن بالمعرفة، فكلما كانت معرفتك أعظم وأثقل على القلب، كانت النفس أسكن، ومنه قيل: الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي، فحب المحمدة والرياسة والعلائق والعلو بشهوة العز، وإنما أحب العز واشتهاه، لإستدامة نعمة النفس، لأنه قد علم أنه إذا عز وعلا على الخلق، أدرك مناه، وجميع ما للجسد والنفس فيه لذة، ويكون قد قهر الخلق كلهم، حتى يكون كله على ما يريد. لا يخالفه أحد، فينال لذة جميع ما يهوي فيدعوك الهوى، ويميل بك إلى طلب اللذة، وقضاء الشهوة، فإذا خاف أن لا ينال ما أراد، قهر الخلق كلهم، وقد علم أسباب القهر، أنه إنما يكون بأخذ قلوبهم ، أو بخوف في قلوبهم منه، لما يرون من عزة، ونفاذ قوله وأمره،

فلما فهمت النفس أن نوال[1] اللذات والشهوات التي هي النفس، علمتها في أخذ قلوب الناس، إما بمحبة مكتسبة، أو بتزين عندهم ومدحه، حتى ينظروا إليك بعين التعظيم، وإما بعمل يخافونك عليه، أحببت العز، واشتهيته وطلبته. فهذا كله إنما حصل منك من أجل نوال الشهوة واللذة التي في نفسك، حتى تظفر به، فما ظفرت به فقد سمنت عليه، وفرحت وبطرت وأشرت، وما لم تظفر به طلبت العز، وهي المتعة، لتقهر الناس، وتأخذ بقلوبهم، حتى لا ترد في أمر شئته، أو هويته وأردته.

قال له قائل: فما ثمرة هذا الهوى؟ قال: ثمرته أن يدعوك إلى أن تدعي الربوبية، فمن ههنا أدعى فرعون الربوبية، حتى يكون نافذ القول في شهواته ومناه، جائز الأمر، دعاه ذلك إلى أن قال: "أنا ربكم الأعلى[1]". هذه ثمرته، ومن ههنا ضاق الأمر بنمرود، حتى احتال للقعود في التابوت، ليطير به إلى الخالق الأعلى، زعم أني أحارب إله السماء، لم يحتمل للضيق الذي حلّ به من قوة شهوته، وإرادة إنفاذ مناه، أن يسمع بذكر أحد غيره يقدر على شيء، فأراد أن يطمس هذا الذكر، فأرى أهل مملكته أني حاربته فقتلته، بما رجع إليه من السهم المدمي. هذا ثمرة الهوى الذي يهوى بك إلى قضاء الشهوات، ودرك ما هو من جنسه، فاحذروه، فإن الصغيرة الضعيفة منه تقوى حتى تصير كبيرة قوية، ترمي بك في أودية المهالك، والمؤمن أنقذه الله تعالى بالمعرفة من أن يدعي الربوبية، أو يقصد لمحاربته، لأن نفسه قد أيقنت، فأيست هذا

---

[1] كذا في الأصل. والنوال العطاء، والمراد: "نيل". وهو المصدر.

[1] سورة ٧٩، آية ٢٤.

المعنى، ولكن تطلب ما دون ذلك في أموره، فليس هذا له بحقيق ولا خليق.

فقد حصل[2] من جميع ما وصفنا إلى هذه الغاية، أن ظلمة هذه النفس الشهوانية قد استولت على القلب، حتى عجز عن حفظ الحدود، وألا تنهى عما زجرت عنه، وإيثار ما أمرت به، وعن أداء الحقوق، وعن القيام بشكر إلهك، فحالت تلك الظلمة عن رؤية الوعد والوعيد، وعن رؤية ربوبيته الظاهرة عليك، وقدرته النافذة فيك، وفي الأشياء كلها، فافترق الناس في هذا الخطب العظيم فرقتين، فمنهم من أقبل على الحمية، ورفض الشهوات، وآثر التنغيص على جميع لذات النفس، حتى ذلّ له وانقمع، فقوى على وثاقه، ثم قوي على قطعة فقطعة، فأشرقت شمس معرفته من قلبه، وهو النور الذي فيه، فأضاء كل شيء. رأى بذلك النور الربوبية الظاهرة، والقدرة النافذة، والسلطان القاهر للأشياء، وجرى الأشياء كلها على مشيئاته وإرادته، فاستقام، ولم يبق من الهوى والشهوة حركة تميل به، وتهوى هكذا وهكذا، عن مشيئات ربه، وما استنار من قدرته النافذة، وربوبيته الظاهرة. ومنهم من ضعف عن هذه الأمور، لم يقدر على رفض الشهوات، وقطع الهوى، فما زال مفكراً في قدرته، ومعتبراً أمور الله عز وجل بقلب فارغ يريد الخير، مقبل على الله تعالى بمجهوده، فكان يزداد بذلك كل يوم يقيناً، وقوة نور في تلك المعرفة، حتى غلب نور المعرفة ظلمة الهوى، فحرقه ومزقه، وبدده، فاستكان لربه في أموره؛ ومنهم من كان هكذا في جهد وطلب، فأدركته رحمة الله

[2] في الأصل: ضل

تعالى، فجذب قلبه جذبة إليه، فصار من الله بمحل ومكان، بقطع الهوى، فصار دكاً، واستنار القلب بما فيه، وذاقت النفس من حلاوة قرب الله عز وجل ما لهت[1] عن جميع شهوات الدنيا، فصار الهوى والمنية والفرح والسرور درك ما نال من قرب الله عز وجل، فنجي من هذا، ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تم الكتاب بحمد الله ومنه

---

[1] كذا في الأصل. والصواب: لهيت به.

الفهرس